الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ٥٤ - ١٦ يوليو سنة ١٩٣٤ - السنة الثانية

2 me Année, No. 54.

Lundi-16-7-1934

بدل الاشتراك عن سنة

ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

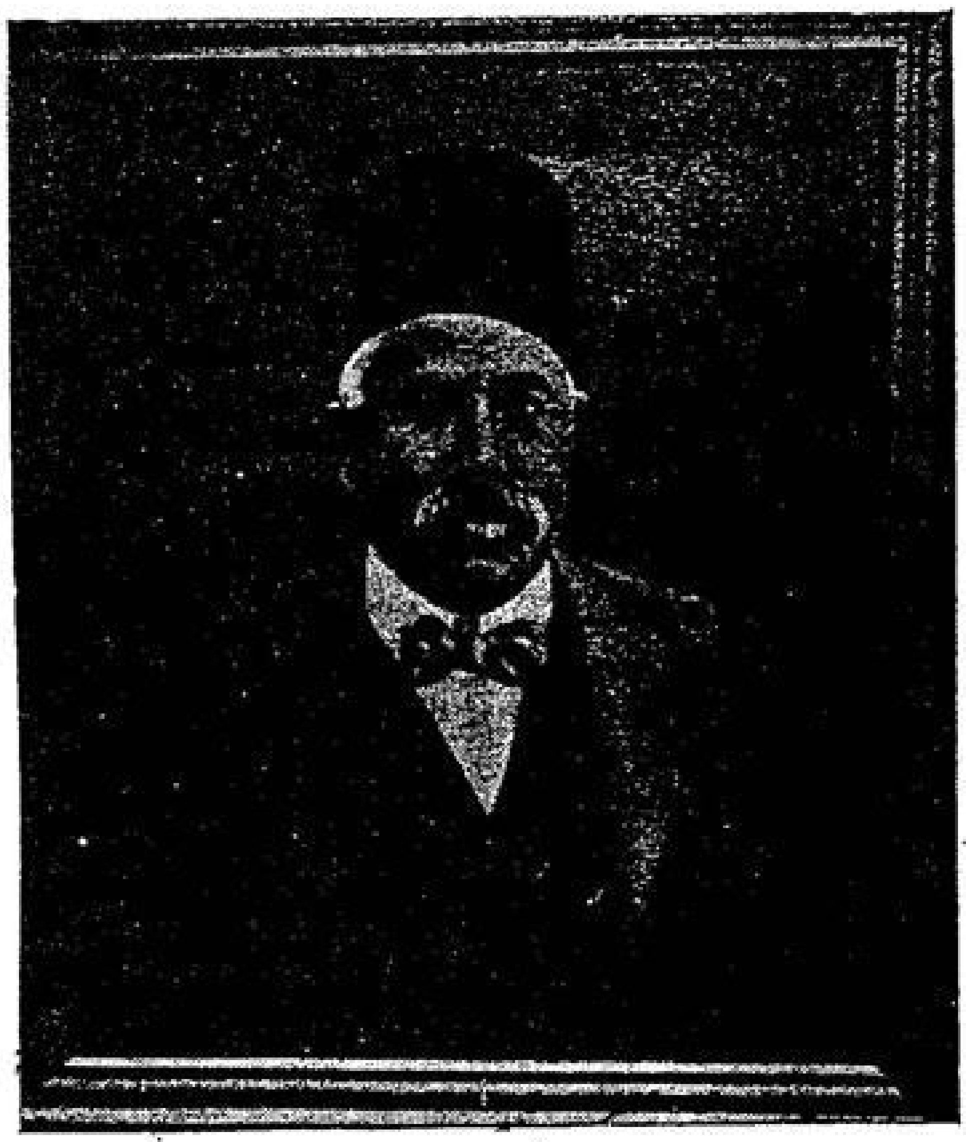
صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم | ٤٢٣٩٠
| ٤٠٥٣٠

العـــدد ٥٤ « القاهرة فى يوم الاثنين ٥ ربيع الثانى سنة ١٣٥٣ — ١٦ يوليو سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

أحمـــــد زكى باشا



رحم الله زكى باشا ورضى عنه ! لقد كان علماً من أعلام هذا العصر ، ورسولاً من رسل هذه النهضة ! وأعلام هذا العصر ورسل هذه النهضة معلومون معدودن ، لا تزيد فيهم المجاملة ، ولا تنقص منهم المجافاة ، ولكل واحد منهم ناحية من نواحى الاصلاح

أشرقت فيها نفسه ، وانتشر فى جوانبها سناه . وهم يمتازون من النابغين والنابهين بأن لهم عقيدة فطرية قوامها الايمان والعصبية ، ورسالة روحية بلاغها الجهاد والتضحية . فمحمد عبده فى الناحية الدينية ، ومصطفى كامل فى الناحية الوطنيـــة ، وقاسم أمين فى الناحية الاجتماعية ، وسعد زغلول فى الناحية السياسية ، وأحمد زكى فى الناحية القوميـة ؛ قد بلّغوا جميعاً رسالات الفطرة على نحو مابلغ المرسلون رسالات الوحى . نزلت على قلوبهم منذ الشباب الأول فجعلت عقولهم وميولهم ومواهبهم وقفاً عليها ودواعى اليها ووسائل لها ؛ ثم لازمتهم فى أطوار العمر ، وحلت من نفوسهم محل الغرض من السعى والغاية من الحياة

فزكى باشا منذ بلغ سن التكليف تمثل لعينه مثـله ، واستعلنت فى ذهنه رسالته : رأى العروبة لفظاً تغير مدلوله فى الناس ، وجنساً تنكرت معالمه فى الأجناس ، ولساناً فشا فيـه الدخيل ، وديناً تقول عليه الباطلُ ، وأثراً عبث به الجهل ، وتاريخاً تطرق اليـه النسيان ، وحضارة غض منها التعصب ، وحقاً تجهم له البغى ، وإرثاً تخطفته الغزاة ، ووحدة مزقتها العوادى . فصمد لاصلاح ذلك كله صمود المصلح الملهَم ، والمؤمن الواثق . وكان أول ما عانى من وسائل العيش معالجة الترجمة فى الديوان ، ثم تعليمها فى المدرسة ؛ فصرف جهده فى تنقيح التراكيب الديوانية ، وتصحيح الأعلام العربية ، وتصويب الأخطاء التاريخية ، ونقْل ما يغلن محامد الاسلام الى اللغة الفرنسية ، ثم لا يسمع بمكرمة تروى لأمة إلا التمس الأولية فيها للعرب . فالصحف الفرنسية تذكر أن وفود المهنئين دخلوا على الرئيس (بوانكاريه) يهنئونه بالرياسة فما شكر أحداً بما شكر به الآخر ، فيكتب فى تلك الصحف نفسها ان الوزير ابن زيدون قد سبقه الى ذلك فى موقف حرج من مواقف العزاء ؛ وتتبجح أوربا باختراع الطيارة فيثبت لها أن ابن فرناس أسبق من طار فى الجو وأول من مات فى سبيل الطيران ؛ وتشيد أمريكا بعبقرية (كولمب) فيقول لها إن العرب أول من فطن الى وجودها وسعى لكشفها

ثم اتسع أمامه أفق الجهاد فاستشرفت نفسه الى إحياء ثقافة العرب ونشر حضارة الاســـلام ، فجاب الأندلس وزار العواصم الأوربية ، ينقب عن نوادر المخطوطات ونفائس المطبوعات ينسخها أو يصورها أو يشتريها لا يدخر فى سبيل ذلك جهداً ولا ثروة .

ثم لابس المستشرقين دهراً مليّا ، يفيدهم ويفيد منهم حتى ثقف مناهج البحث ، وحذق أصول التحقيق ، ومهر طرائق النشر ، وأصبح لهم مرجعاً وفيهم حجة

فلما اعتزل المنصب الحكومى تسايرت قواه وهواه الى خدمة الأمة العربية ، فوفد على ملوكها ، وسفر بينهم بالصدق والألفة ، حتى أذهب الموجدة ، ومهد لتوحيد الكلمة

ثم جرد لاستقراء الدقائق واستجلاء الحقائق نشاط الصبى ، وعزم الشاب ، وصبر الرجولة ، فشـــغل الصحف بالمقالات والمناظرات ، وعمر الأندية بالخطب والمحاضرات ، وأحيا المجالس بالملح والمحاورات ، وفى كل يوم يعتكف الساعات الطوال فى مكتبته الجامعة يحرر مسألة ، أو يحضّر اجابة ، أو يحبّر مقالة ، أو يصحح تجربة ، حتى اذا فرغ من ذلك كله رجع الى بيته ، فوجد ناديه قد حفل بزواره وسماره من رجالات العرب والمسلمين الطارئين على مصر ، فينشر عليـه الأنس ، ويفيض فيـه الكرم ، ويبث خلاله المعرفة ، فكانت حضرته كحضرة الصاحب بن عباد ، مصدر العوارف والمعارف ، ومثابة القصاد من كل قطر وطبقة

ثم أسلم وجهه الى الله فى عهده الأخير ، فجعل همه وعزمه حبساً على إنشاء مسجده وبناء قبره . فكنت تراه لا يفكر إلا فى هذا المسجد ، ولا يعمل إلا له ، ولا يتحدث إلا عنه ، ولا ينفق إلا عليه ، ولا يُبرد البُرُد ويرسل الرسل إلا فى شأنه . فلو لم يعجله الموت عنه لتركه قطعة خالدة من الفن العربى

***

ثقافة زكى باشا ثقافة الأديب ، فهو محيط بكل شىء ، ولـكنه غير راسخ فى شىء ؛ وذوقه ذوق الفنان ، فهو أنيق فى ملبسه ، أنيق فى مأكله ، أنيق فى مسكنه ، أنيق فى أسلوبه ، أنيق فى نشر مقاله ، أنيق فى طبع كتابه ؛ وخلقه خلق العالم ، فهو متطامن النفس ، عذب الروح ، خلو الفكاهة ، سليم الصدر ، يذهب فى السذاجة الى حد العُجب ، ويخرج من تقرير مجهوده فى العلم الى التفاخر به

وكان تصوره وتصويره عربيين خالصين على رغم تضلعه من الفرنسية ، وإلمامه بالآداب الأوروبية : فتفكيره استطرادى لا يعنى بالوحدة ، ولا يحفل كثيراً بالتناسق ، وأسلوبه أندلسى يتصيد السجع ، ويتلمس ألوان البديع ، ومرجع ذلك الى اعتقاده بعربيته ، واعتداده بشرقيته ، واعتماده فى تكوين نفسه على أدب أمته

ما فعلت الأيام

للأستاذ أحمد أمين

عرفته بالاسكندرية منذ عشرين عاما ، شاباً رقيق البدن ، ضئيل الجسم ، مسنون الوجه ، شاحب اللون ، أظهر مميزاته الرقة والتواضع والتدين . حيى الطبع ، شديد الخجل ، إن جلس فى قوم اعتقل لسانه ، وأطرق رأسه . وأرخى عينيه ؛ وإن صدرت منه هفوة أو شىء ظنه هفوة ، تمنى لو ساخت به الأرض ، وظل يحاسب نفسه ويطيل تأنيبها ، فآثر الانفراد وأخلد الى الوحدة ، واستأنس بالوحشة ، فقلّت معرفته بالناس ، وقلّت معرفة الناس به ، لا يعرف من العالم إلا مدرسته التى يدرس فيها ، وبيته الذى يأوى اليه ، ومسجده الذى يتعبد فيه ؛ فأما الحياة وشؤونها ، وجدها وهزلها ، وملاهيها وألاعيبها ، فلا يدرى منها شيئاً . لا يجلس فى مقهى لأنه يخلّ بمروءته ، ولا يذهب الى تمثيل أو سينما لأنهما لا يخلوان من امرأة سافرة ، ولا يشترى شيئاً من بقال عنده لحم خنزير خوفاً من أن تكون سكينته التى يقطع بها الجبن والحلوى قد مست الخنزير ، فلا يطهرها مسح ، إنما يطهرها غسل سبع مرات إحداهن بالتراب ؛ ويغض طرفه اذا سار حذر أن تقع عينه على امرأة .

أعز شىء عليه فى الوجود دينه ، حياته كلها دين ، ومثله الأعلى رجل ظهارته دين ، وبطانته دين ، تفتير عينيه فى خشوع دليل على أنه قضى شطر ليله فى عبادة ومناجاة ، أسبل عليه الدين نوعاً لطيفاً من الرضى بالقضاء والقدر ، فلا يأسى على فائت ، ولا يجزع على ميت ، ولا يستخفه الفرح لخير ، ولا يغلو فى الحزن على شر ، راض بما كان وما يكون ، فكل شىء بقضاء وقدر حتى العجز والكيس ، كل أحكامه صادرة عن دين ، فالرجل الطيب من تدين ، ورجل السوء من لم يتدين ، ويستحيل على رجل أن يكون طيباً إذا شرب كأساً من خمر ، أو لعب لعبة ميسر ، أو ترك صلاة أو زكاة — يوفق دائماً بين أعماله فى الحياة وأوامر الدين ، إذا أراد الرياضة ذهب الى سيدى بشر لزيارته ، أو لسيدى جابر لصلاة الجمعة فيه ؛ أو أخذ جزءاً من « الاحياء » وذهب الى « طابية قايتباى » يخلو فيها بنفسه ودينه وكتاب الاحياء . وإن أراد أن يحفظ شيئاً من الأدب حفظ فى نهج البلاغة لأنه يجمع بين البلاغة والدين ، وإن عرضت فرصة فى دراسته للغة العربية خرج من اللغة الى الدين ، وانقلب واعظاً لتلاميذه ، حتى استطاع أن يكوّن منهم فرقة دينية تلتزم الصلاة والصوم وشعائر الدين .

عرفته اتفاقاً ، ولست أدرى الآن سبب المعرفة وكيف كانت ، وكل ما أذكره أنى عرفته ، وفى لمحة تحولت المعرفة الى صداقة فحب ، فكان من خاصة إخوانى وأقربهم مودة الى قلبى ، يأنس بى وآنس به ، ويفضى إلىّ بدخيلة نفسه وكامن أسراره ، وكان حبى له مشوباً بعطف عليه ورحمة له ، عطفنى عليه ظرف فيه ، وأرأفنى به رقة حواشيه ، وملأ نفسى رحمة عليه قسوته على نفسه وأخذه لها فى كل شىء بالأشد الأحزم ، قد ملك الدين عليه نفسه ، فروّعه من كل نعيم خشية السؤال ، وهوّل عليه كل لذة خوف العقاب ، وغلبت عليه فى كل تصرف فكرة الموت مخافة ما بعده ، إن قال له قائل « ولا تنس نصيبك من الدنيا » قال « ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » .

على كل حال نعمنا بالصداقة حيناً تساهمنا فيه الوفاء ، وتقاسمنا الصفاء ، أسافر الى الاسكندرية فأرى أول واجب علىّ أن أزوره ، ويحضر الى القاهرة فيرى أول واجب عليه أن يزورنى ، وأكتب

إن رسالة الفقيد الكريم كانت ضرورة من ضرورات الاصلاح فى عصر قضى الله أن يبعث فيه مجد العرب ليحيا من حىّ عن بينة ، فان نهوض الأمة على تاريخ طامس ، وأثر دارس ، ولغة معجمة ، وهيكل منحل ، يكون أشبه بنهوض الكسيح لا يقوم الا ليقع

وقد لخص الفقيد رسالته أجمل تلخيص فى ثلاثة أبيات من الشعر أنشأها ثم جعلها زخرف داره ، وصورة شعاره ، ومرجع حديثه . وهى :

وقفت على احياء قومى يراعتى ... وقلبى وهل إلا اليراعة والقلب
ولى كل يوم موقف ومقالة ... أنادى ليوث العرب ويحكموا هبوا
فاما حياة تبعث الشرق ناهضاً ... وإما فناء وهو ما يرقب الغرب

رحمه الله رحمة واسعة . وعوض العروبة والعربية والاسلام من فقده خير العوض .

أحمد حسن الزيات

اليه ، ويكتب إلىّ ، ثم عفّى الزمان على الصداقة ففترت حرارتها ، وخمدت جذوتها ، لا لسبب إلا أن الصداقة ككل حىّ إذا لم تُغذ دائماً بالمقابلة والمكاتبة أسرع اليها الذبول فالفناء .

* * *

ثم دارت الأيام دورتها ، وتعرفت فى الاسكندرية بانسان جديد ، فاذا هو صديق القديم ، هو فى هذه المرة بدين بطين ، مطهم الوجه ، ريان السواعد ؛ كنت فى أيامى الأولى أقرأ فى أرنبة أنفه وصفاء جبهته آيات السذاجة والاخلاص ، وكنت أرى فى وجهه وجلسته عزوفاً عن الدنيا ، وزهداً فى الاستكثار منها ، ورضى بميسورها ؛ وكنت ألمح فى فتور عينه حياء العذراء وخجل المخدرات ؛ وكنت أرى فى نبرات صوته وحركات جفونه ونظرات عينه ديناً وورعاً ، فاذا كل ذلك قد استحال كما يستحيل الماء الى ثلج ، علمت أنه قد ورث من أبيه فأثرى ، وسمحت لى الظروف بمخالطته فأدهشنى ما رأيت من تغير وانقلاب — رأيته وقد أماط عن وجهه قناع الحياء ، وخلع ربقة الحشمة ، يداخل الناس ويمازحهم ، حسن الصحبة ، جميل العشرة ، يضرب بسهم وافر فى المفاكهة والتنادر ، جيد القصص ، حسن الحديث ، لا يأنف من حديث فاجر اذا كانت فيه نكتة حلوة ، كثرت أصحابه على اختلاف منازعهم وطبقاتهم ، وهو عند كل جماعة منهم قطب الرحى ، يمتزج بأرواحهم ويتصل بقلوبهم ، خبير كل الخبرة بأندية اللهو وما إليها ، يعرف جد المعرفة برامج السينما فى كل أسبوع ، وما يمثل من روايات فى كل فصل من الفصول ، وعنده الخبر اليقين عن كل مغن ومغنية ، وفنان وفنانة أتت من مصر إلى الأسكندرية تغنى أو تمثل ، ذهب عنه خفر عينيه وأصبح يتعشق الجمال ويتتبعه ، ويحملق فيه ويشتهيه ، حلت المسائل المالية جزءاً كبيراً من عقله فهو كثير التفكير فيها ، له ديون وعليه ديون ، وله قضايا وعليه قضايا ، وله دفاتر حساب دقيقة ، وله آمال مالية واسعة

حادثته مرة ، وكان أشد ما أريد استطلاعه منه أن أعرف حال دينه الذى كان يملك عليه قلبه وعقله ، والذى كان يغمر حياته ويسيطر على كل خطوة من خطواته ، فاذا عقله حر شديد الحرية فى تفكيره ، قد تحرر من كل قيد ، يعجب بالمدنية الحديثة ويستلهمها الرأى ويستوحيها النظر ، ويتخذ عماد منطقه ومصدر حكمه على الأشياء ما يفعله الاوربيون وما لا يفعلون . قد يعارض ما يراه من ضروب المدنية مبدأ من مبادىء دينه فيظهر عليه نوع من الارتباك والحيرة ، ويجمجم فى القول ويتبين فى قوله الاضطراب بين دين خالط لحمه ودمه شطراً من حياته ، وبين عقل نزع إلى الحرية فى آخر أيامه ، ويشعر بثقل الموقف على نفسه فيجتهد فى تحوير الحديث ، وتغيير مجرى القول إلى حيث يسترد كامل رأيه ، ومنتهى حريته — هذا عقله ، وأما قلبه فدينه فى رف من رفوفه ، لم يملأه ولم يخل منه ، لذلك حرت أن أسميه مؤمناً أو كافراً ، ماشيته مرة على البحر فرآه جميلاً جليلاً ، ورأى القمر يسطع عليه بنوره الساحر ، فصاح هذا موضع سجود ، فصلى على الرمل ، ودعانى مرة إلى ملهى فكان فيه كمن لا يؤمن بحساب ولا عقاب ، وهكذا تذبذبت حياته بين نزعة قديمة ونزعة جديدة ، ودين نشأ عليه ، ولا دين مال حديثاً إليه ، حينا يتحرك دينه الذى فى الرف وينتعش حتى يعم قلبه ، وحينا ينكمش وينكمش حتى لا يكاد يرى أو يحس

* * *

حننت اليه لما بيننا من حب قديم ، ولكن لست أدرى لم لم تتأكد بيننا الصداقة فى هذه المرة كما تأكدت من قبل ، أكان يعطفنى عليه دينه وقد رق ؟ أم كان يحنني عليه ما فيه من ضعف — مظهره الحياء والخجل ، وقد قوى فلا حياء ولا خجل ، أم كانت تؤلف بيننا وحدة فتعددت ، وأسلوب واحد فى الحياة فتفرقت بنا السبل ، لعله شىء من ذلك ، ولعله كل ذلك ، ولعله شىء غير ذلك ، على كل حال تركته وبيننا ودّ دخله العقل فخف ، وصداقة جال فى نواحيها الفكر ففترت

لقد خليته ، وأنا أفكر فى شأنه ، لقد عاش شيخاً وهو شاب ، وعاش شاباً وهو شيخ — عصى هواه صغيراً وأطاعه كبيراً ، فليته ولد كبيراً ثم عاد صغيراً ، وليت شعرى هو فى أى حاليه أسعد ، أيوم فر من العالم إلى دينه ، أم يوم فر من دينه إلى العالم ؟ — انه ليمثل فى حياته العالم خير تمثيل ، موجة دين تتبعها موجة الحاد ، وموجة روحانية تتلوها موجة مادية ، وهكذا دواليك ، وما أدرى أيقف صديقنا فى تطوره عند هذا الحد ، أم يعود سيرته الأولى ، أم يختط مسلكاً جديداً لا هو هذا ولا هو ذاك ؟ الله أعلم ؟

أحمد أمين

سمو الفقر
في المصلح الاجتماعي الأعظم

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

— ١ —

كان النبي صلى الله عليه وسلم على مايصف التاريخ من الفقر والقلة ، ولكنه كان بطبيعته فوق الاستغناء ، فهو فقير لايجوز أن يوصف بالفقر ولا تناله المعاني النفسية التي تعلو بعَرَضٍ من الدنيا وتنزل بعرض ، فما كانت به خَلّة تحدث هدما في الحياة فيرممها المال ، ولا كان يتحرك في سعي ينفق فيه من نفسه الكبيرة ليجمع من الدنيا ، ولا كان يتقلب بين البعيد والقريب من طمع أدرك أو طمع أخفق ، ولا نظر لنفسه في الحسبة والتدبير لتدرّ معيشته فيحتلبها ذهباً أو فضة ، ولا استقر في قلبه العظيم مايجعل للدينار معني الدينار ولا للدرهم معني الدرهم ؛ فان المعنى الحيّ لهذا المال هو إظهار النفس رابية متجسمة في صورة تكبر على قدر من السعة والغنى ؛ والمعنى الحي للفقر من المال هو إبراز النفس ضئيلة منزوية في صورة تصغر على قدر من الضيق والعُسرة .

إن فقرهُ صلى الله عليه وسلم كان من أنه يتّسع في الكون لا في المال ، فهو فقر يعد من معجزاته الكبرى التي لم يتنبه إليها أحد إلى الآن ، وهو خاص به ، ومن أين تدبّرته رأيته في حقيقته معجزة تواضعت وغيّرت اسمها . معجزة فيها الحقائق النفسية والاجتماعية الكبرى ، وقد سبقت زمنها بأربعة عشر قرناً ، وهي اليوم تثبت بالبرهان معني قوله صلى الله عليه وسلم في صفة نفسه « إنما أنا رحمةٌ مُهْداة »

نحن في عصر تكاد الفضيلة الانسانية فيه تلحق بالألفاظ التاريخية التي تدل على ماكان قديما . . بل عادت كلمة من كلمات الشعر تُراد لتحريك النسيم اللغوي الراكد في الخيال ، كما تقول : السحاب الأزرق ، والفجر الأبيض ، والشفق الأحمر ، والتّطاريف الوردية على ذيل الشمس ؛ وأصبح الناس ينظر أكثرهم إلى أكثرهم بأعين فيها معني وحشيّ لو لمس لضرب أو طعن أو ذبح ؛ وعملت المدنية أعمالها فلم تزد على أن أخرجت الشكل الشعري لانسانها الغني تَرفا ونعمة وافتناناً بين ذلك ، من أيسر الحلال إلى القظيع المتفاحش في الأباحة ، فكأنما وضعت المدنية عقلاً في وحش ، فزاغت فيه الطبيعة من ناحيتين ؛ ثم قابلته بالشكل الوحشي لانسانها الفقير ، فكأنما نزعت عقلاً من إنسان ، فضلت فيه الطبيعة من ناحيتين ؛ وكان مع الأول سَرَف الهوى ، وكان مع الثاني سَرَف الحماقة .

وقد أصبح من تهكم الحياة بأهلها أن يكون الفقير فقيراً وهو يعلم أن صناعته في المدنية هي عَمَلُ الغنيَ للأغنياء . . وأن يكون الغنيُّ غنياً وهو يعلم أن عمله في المدنية هو صنعة الفقر لضميره .

وخرجت من هذا وذاك مسائل جديدة في فلسفة المعايشة الانسانية التي يسمونها « الاجتماع » ، فسؤال اسمه الاشتراكية يسأل القوة أن تجعل صاحب المال من ماله كالمرأة المطلقة من رجلها . . وسؤال اسمه الشيوعية يطلب من القوة أن تسلط على كل حيّ مايجعله في قواه كصاحب الدار سلط عليه الطغيان فانقلبت داره سجنه ، فهو يتألم من معني نعمته بمعنى شقائه ، ويكون أغيظ له أن روح السجن ليست شيئاً غير روح البيت ؛ وسؤال اسمه العَدَمِيّة [1] يأمر القوة أن تجعل الانسان كالحيوان المُسْتَوْلغ فيما يجده من طيب وخبيث لايبالي ذماً ولا عاراً ، وليس إلا أنه يعيش ليموت أكلاً ونوماً . . .

هذا إلى أسئلة كثيرة لو ذهبنا نعدها ونصفها لطال بنا القول وكلها عاملة على نزع الشعور العقلي من الحياة لتظهر أسخف مما هي ، وأقبح مما كانت ؛ حتى أصبحت الشمس تمحو ليلاً عن المادة وتلقي ليلاً على النفس ، في حين أن الدين والانسانية لايعملان غير بث هذا النور العقلي في الأشياء والمعاني لتظهر الحياة مضيئة ملتمعة فتصبح أوضح مما هي في نفسها ، وأجمل مما هي في الطبيعة .

في مثل هذه النزعات المتقاتلة التي صعدت بالفلسفة ونزلت ، وجعلت من العلم في صدر الانسانية ملء سماء من الغيوم بسوادها ورعدها وصواعقها ، وتركت العالم يضج ضجيجه المزعج في قلب

(١) الفوضوية وما هو في معناها من طيش النزعة

كل حى حتى لتذاع الهموم إلى قلوب الناس إذاعة الأصوات إلى أسماعهم فى « الراديو » . . . فى مثل هذا البلاء الماحق تتلفت الانسانية إلى التاريخ تسأله درساً من الكمال الانسانى القديم تطِبّ منه لهذه الحماقات الجديدة ، ولو علمت لعلمت أن درس هذا العصر فى علاج مشاكله الانسانية هو « محمد » صلى الله عليه وسلم الذى لن يبلغ أحد فى وصفه الاجتماعى ما بلغ هو فى قوله « إنما أنا رحمة مهداة »

* * *

هذا المصلح الاجتماعى الأعظم يلقى فقره اليوم درساً على الدنيا العلمية الفلسفية ، لا من كتاب ولا فكر ، ولكن بأخلاقه وعمله وسيرته ؛ إذ ليس المصلح من فكّر وكتب ، ووعظ وخطب ، ولكنه الحىّ العظيم الذى تلتمسه الفكرة العظيمة لتحيا فيه وتجعل له عمراً ذهنياً يكون مُصرَّفا على حكمها ، فيكون تاريخه ووصفه هو وصف هذه الفكرة وتاريخها . وما كان محمد صلى الله عليه وسلم إلا عمراً ذهنياً محضاً تمر فيه المعانى الآلهية لتظهر للناس إلهية مفسرة . وكل حياته صلى الله عليه وسلم دروس مفتّنة مختلفة المعانى ، ولكنها فى جملتها تخاطب الانسان على الدهر بهذه الجملة : أيها الحى ، إذا كانت الحياة هنا فلا تكن أنت هناك . أى إذا كانت الحياة فى الحقيقة فلا تكن أنت فى الكذب ، وإذا كانت الحياة فى الرجولة البصيرة فلا تكن أنت فى الطفولة النزقة ؛ فان الرجل يعرف ويدرك فهو بذلك وراء الحقيقىّ ، ولكن الطفل يجهل ولا يعرف الدنيا إلا بعينيه فهو وراء الوهم ، ومن ثم طيشه ونزقه ، وإيثاره كل عاجل وإن قلّ ، وعمله أن تكون حياته النفسية الضئيلة فى مثل توثب أعضاء جسمه ، حتى كأنه أبداً يلعب بظاهره وباطنه معاً . .

أيها الحى ، إذا كانت الحياة هنا فلا تكن أنت هناك . أى الحياة فى ذاتك الداخلية وقانون كمالها ، فاذا استطعت أن تُخرِج للأرض معنى سماوياً من ذاتك فهذا هو الجديد دائماً فى الانسانية وأنت بذلك عائش فى القريب القريب من الروح ، وأنت به شىء إلهى ؛ وإذا لم تستطع وعشت فى دمك وأعصابك فهذا هو القديم دائماً فى الحيوانية ، وأنت بذلك عائش فى البعيد البعيد من النفس وأنت به شىء أرضى كالحجر والتراب .

هنا ، أى فى الارادة التى فيك وحدك ، لا هناك ، أى فى الخيال الذى هو فى كل شئ . وهنا ، فى أخلاقك وفضائلك التى لا تدفعك إلى طريق من طرق الحياة إلا إذا كان هو بعينه طريقاً من طرق الهداية والحكمة ؛ وليس هناك ، فى أموالك ومعايشك التى تجعلك كاللص مندفعاً إلى كل طريق متى كان هو بعينه طريقاً إلى نَهْبة أو سرقة . هنا ، فى الروح إذ تشعر الروح أنها موجودة ثم تعمل لتثبت أنها شاعرة بوجودها ، ماضية إلى مصيرها ، منتهية بجسدها إلى الموت الانسانى على سنة النفس الخالدة ؛ وليس هناك فى الحس إذ يتعلق الحس بما يتقلب على الجسم فهو مهتاج لشعوره بوشك فنائه فلا يحدث إلا الألم إن نال أو لم ينلْ ، وهو منتهٍ بجسمه إلى الموت الحيوانى بين آكل ومأكول على سنة الطبيعة الفانية .

أيها الحى ، إذا كانت الحياة هنا فلا تكن أنت هناك

* * *

إن الحكيم الذى ينظر إلى ماوراء الأشياء فيتعرف أسرارها لا تكون له حياة الذى يتعلق بظاهرها ولا أخلاقه ولا نظرته ، هذا الأخير هو فى نفسه شئ من الأشياء له مظهر المادة وخداعها عن الحقيقة ، وذلك الأول هو نفسه سر من الأسرار له روعة السر وكشفُه عن الحقيقة . ولهذا كان فى حياة الأنبياء والحكماء مالا يطيقه الناس ولا يضبِطونه إذا تكلفوه ، بل ينخرق عليهم فيكون منه العجز ، وينشأ من العجز الغلط ، ويحدث من الغلط الزلل .

ونظرة نبينا صلى الله عليه وسلم إلى هذا الوجود نظرة شاملة مدركة لحقيقة اللانهاية ، فيرى بداية كل شىء مادىّ هى نهايته فى التوّ واللحظة ، فلا وجود له إلا عارضاً ماراً ، فهو فى اعتباره موجود غير موجود ، مبتدىء منتهٍ معاً . وبذلك تبطل عنده الاشياء المادية وتأثيرها ، فلا تتصل بنفسه العالية إلا من أضعف جهاتها ، ويجد لها الناس فى حياتهم الشجرة والفرع والثمرة ، وما لها عنده هو جذر ولا فرع . وبهذا لم يفتِنه شىء ولم يتعلق بشىء ، وكانت الدنيا تطول الناس وتتقاصر عنه ، وكانت منقطعة النماء وهو ذاهب فى نموه الروحى ، وكأنما هو صورة أخرى من آدم عليه السلام ، فكلاهما لمس بنفسه الحياة جديدةً خالية مما جمع فيها الزمن وأهله

من طمع وشرَه ، وجاء آدم ليعطى الأرض ناسها من صلبه ، وجاء محمد ليعطى الناس قوانينهم من فضائله ، فآدم بشخصه هو دنيا بُعثت لتتسع ، ومحمد بشخصه هو دنيا بعثت لتنتظم .

وماذا يُفهم من الفلسفة الأخلاقية النبوية العظيمـة ؟ يفهم منها أن الشهوات خلقت مع الانسان تتحكم فيه لينقلب بها إنساناً يتحكم فيها ، وأن الانسان الصحيح الذى لم تُزوِّره الدنيا يجب أن يكون ذا روح يمتد فيفيض عن غايات جسمه إلى ما هو أعلى فأعلى حتى يصبح فى حكم النورو انطلاقه وحريته ، ولا ينكمش فيحصره جسمه فى غاياته وضروراته فيرتدّ إلى ماهو أسفلَ أسفلَ حتى يعود فى حكم التراب وأسره وعبوديته . فالفقر وما اليه ، والزهـد هو بسبيل منه ، والانصراف عن الشهوات والرذائل — كل ذلك ان هو إلا تراجع النفس العالية إلى ذاتها النورانية حالاً بعد حال ، وشيئاً بعـد شىء ، لتضىء على المادة فتكشف حقائقها الصريحة فلا تباليها ولا تقيم لها وزنا . فبينما الناس يرون الأموال والشهوات مادة حياة وعمل وشعور ، تراها هى مادة بحث ومعرفة واعتبـار ليس غير ، وبهذا تكون النفس العظيمة فى الدنيا كأُستاذ المعمل ، تدخل المادة إلى معمله وهى مادة وفكرة ، وتخرج منه وهى حقيقة ومعرفة ، وعلى أى أحوالها فهى إنما تُحس فى ذلك المعمل بأصابع علمية دقيقة ليس فيها الجمع ولا الحرص ، ولـكن فيها الذهن والفكر ، وليس لها طبيعة الرغبة والغفلة ، ولـكن طبيعة الانتباه والتحرّز ، وليست فى أسر المادة ، ولـكن المادة فى أسرها ماشاءت .

ولا يسمى فقره صلى الله عليه وسلم زهداً كما يظن الضعفاء ممن يتعلقون على ظاهر التاريخ ، ولا يحققون أصوله النفسية ، وأكثرهم يقرأ التاريخ النبوى بأرواح مظلمة تُريهم ما تُرى العينُ إذا مااختلط الظلام ولبس الأشياء فتراءت مجملة لاتفصيل لها ، مُفْرغة لاتبيين فيها ، وما بها من ذلك شىء ، غير أنها تتراءى فى بقية من البصر لاتغمرها .

وهل الزهد إلا أن تطرد الجسم عنك وهو معك ، وتنصرف عنه وهو بك متعلق ؟ فتلك سخرية ومُثْلة ، وهى فى رأيى تشويه للجسم بروحه ، وقد تنعكس فتكون من تشويه الروح بجسمها فليس يعلم إلا الله وحده : أذاك تفسير لانسانية الزاهد بالنور ، أم هو تفسير بالتراب . . . .

ولقد كان صلى الله عليه وسلم يملك المال ويجده ، وكان أجودَ به من الريح المرسَلة ، ولـكنه لايدعه يتناسل عنده ، ولا يتركه ينبت فى عمله ، وإنما كان عمله ترجمة لأحساســه الروحى ، فهو رسول تعليمى ، قلبه العظيم فى القوانين الكثيرة من واجباته ، وهو يريد إثبات وحدة الانسانية ، وأن هذا الانسان مع المـادة الصامتة العمياء مادةٌ مفكرةٌ مميزة ، وأن الدين قوة روحية يلقَى بها المؤمن أحوال الحياة فلا يثبت بازائها شىء على شيئيّته ، إذ الروح خلود وبقاء ، والمادة فناء وتحوُّل ، ومن ثم تخضع الحوادث للروح المؤمنة وتتغير معها ، فان لم تخضعَ لم تُخضِعْها ، وإن لم تتغير لاتتغير الروح بها ، وأساس الايمان أن ماينتهى لاينبغى أن يتصرف بما لاينتهى .

وماقيمة العقيدة إلا بصدقها فى الحياة ، وأكثر مايُصنع هذا المال : إما الـكذب الصُّراح فى الحياة ، وإما شبهة الـكذب ، ولهذا تنزّه النبى صلى الله عليـه وسلم عن التعلق به ، وزاده بعداً منه أنه نبيّ الانسانية ومثلُها الأعلى ، فحياته الشريفة ليست كما ترى فى الناس إيجاداً لحلّ مسائل الفرد وتعقيداً لمسائل غيره ، ولا توسّعا من ناحية وتضييقا من الناحية الأخرى ، ولاجما من هنا ومنعا من هناك ، بل كانت حياته بعد الرسالة منصرفة إلى اقرار التوازن فى الانسانية ، وتعليم الجميع على تفاوتهم واختلاف مراتبهم كيف يكون لهم عقل واحد من الـكون . وبهذا العقل الـكونى السليم ترى المؤمن إذا عرض له الشىء من الدنيـا يفتنه أو يصرفه عن واجبه الانسانى — أبت نفسه العظيمة إلا أن ترتفع بطبيعتها ، فاذا هو فى قانون السمو ، وإذا المادة فى قانون الثقل ، فيرتفع وتتهاوى ، ويصبح الذهب — وإنه ذهب — وليس فيه عنـد المؤمن إلا روح التراب .

مصطفى صادق الرافعى

مجهولو الأبطال

عيسى العـــوام

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

وقفت الى جانب الطريح المسكين وقد فقد المحيطون به الأمل في حياته، وكان رجلاً نيف على الستين، ظل يجاهد في عمله حتى وقع وهو يدفع عربته وعليها حملها الثقيل فكان في وقعته أجله، وهو من أهل الصعيد الأعلى كما تنم عليه عمامته وسحنته، إذ كان ثوبه المهلهل لا يكاد يتماسك في رأى العين ليكون آية دالة على منبت لابسه، فكان موته في جوار البحر الملح موت المهاجر الشهيد، لا تحيط به عناية أهل، ولا ترفه عنه شفقة البنين. ومن يدرى ماذا كان يعانى ذلك المسكين قبيل ضجعته من آلام تحملها صامتاً، وجاهد في سبيله وهى تحزه وتطعنه؟ ومن يدرى على أية حال من الضعف كان يدفع بحمله في سبيل القوت، وسوط الجوع من ورائه يلهب ظهره؟

ووقف حوله معى جماعة من أهل الساحل بقوامهم السمهرى ولونهم الخمرى، فكانوا يؤدون له تحية الوداع على غير معرفة، والشفقة بادية في محياهم، ولم يكن أحدهم خيراً منه بزة ولا مظهرا، ولكنهم كانوا جميعاً يعرفون كنه ما في هذه الحال من عظمة لأنهم يجاهدون مثله، ولعلهم هاجروا مثله من بلاد قصايا في التماس الخبز وما يبلله من رقيق الأدام. « أولئك قومى بارك الله فيهمو »

وانصرفت وفى عيني دمعة كما كان في عين سواى من الوقوف إشفاقاً على ذلك المسكين، وجعلت أفكر فيما تدين به الحياة لهؤلاء. فهم عدة السلم، وهم سواعد العمل، وهم جنود النضال. وأذكرنى ذلك التفكير ببطل من هؤلاء الدهماء ذكر التاريخ اسمه، وأقام له تمثالاً هو رمز لمجهولى الأبطال، فلسنا نعرف أهله ولا منبته. ولا شيئاً مما يمسه غير اسمه، وهو « عيسي العوام »

كان ذلك الرجل يعيش في عكاء ثغر الشام منذ نيف وثمانمائة عام. في أيام النضال الكبير بين الشرق والغرب — أيام الحروب الصليبية — وكان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب في ذلك الوقت في صراع الحياة أو الموت مع ملوك الفرنج قد بلغ به الجد أن كان يتمثل بقول عبد الله بن الزبير وهو يصارع الاشتر النخعى في موقعة الجمل مصارعة من لا يريد هوادة، إذ قال:

اقتلونى وما لكا واقتلوا مالكا معى

وكان الفرنج قد جمعوا جموعهم وحشدوا حشدهم أمام عكاء، وجعلوا التغلب عليها مقصد همهم. فكان هناك ملوك ثلاثة هم أكبر ملوك أوربا وزعماء فرسانها. وحاصروا المسلمين في ذلك الثغر من قبل البر ومن قبل البحر، وأتى صلاح الدين من خارج المدينة يحاول رفع الحصار عن اخوانه وجنوده.

واستمات جنود الجانبين في القتال، وبذل كل قصاراه في النضال، وعض على النواجذ من الأضراس. واستطالت بهم الحرب نيفاً وسنتين، حتى اشتد الأمر بالمحصورين، وعجز صلاح الدين عن أن يرفع عنهم نطاق الأعداء، فأخذ ذلك النطاق يتضايق ويشتد، حتى بلغت الشدة بالمحصورين مبلغاً عظيما، وتراخت همة الدفاع من طول الجهد وشدة القتال.

فذهب جماعة من صيادى عكاء ممن درجوا على أمواج البحر ونشأوا على أمواهه، فعرفوا مداخله ومخارجه، وبرعوا في اقتحام تياراته وخوض غمراته، وعرضوا على قادة المسلمين ما في طاقتهم من المساعدة في ذلك المأزق. وتساءل القادة ماذا عسى هؤلاء يصنعون في قتال العدو؟ وماذا تراهم يستطيعون أن يرزأوا فيه؟ فأقبل عليهم الصيادون يعرضون أن يحملوا الأخبار الى اخوانهم المحصورين، وأن يحملوا المال اليهم إذ استحال على السلطان الاتصال بهم، وقالوا انهم يستطيعون أن يستتروا بجنح الليل فيسلكوا سبيلهم بين سفن الأعداء سباحة، فاذا ما تعذر ذلك سلكوا بينها غاطسين في الماء كما تسلك الأسماك وتسبح الحيتان. وكان صلاح الدين في أشد الحاجة الى الاتصال بالجنود والقواد الذين يدافعون عن المدينة، فقبل ما عرض هؤلاء الأبطال، وكانوا منذ ذلك الوقت لا ينقطع وافدهم من المدينة الى عسكر المسلمين، أو من عسكر المسلمين الى المدينة. وكانوا لا يطلبون في سبيل ذلك جزاء، إن هو إلا قربان يقدمونه احتساباً، وواجب يؤدونه عن رضا وسخاء.

وظهر من بينهم « عيسى العوام » فكان أسرعهم سبحا وأجرأهم على الليل والنهار ، وأكثرهم إقداماً على الاخطار . فصار يهتف باسمه ، ويدعى إذا مااشتد الخطر وادلهم الخطب . وكان هو لا يخيب ظناً ولا يخيم عند دعوة . وكانت بسالته تزداد كلما ضاقت حلقة الحصار . والتأمت فروجه واتصلت سلسلته . فكان أقر لعينه وأثلج لصدره أن يغوص فى شبر بين سفن الفرنج ، أو يسبح على مرمى سهم من نبالهم . وبقى على أداء واجبه مدة حتى طلع يوم ، وانتظر أهل عكاء طلوع عيسى عليهم من ثنايا الموج كعادته ، فلم يتحقق لهم ذلك . وطال وقوفهم وامتدت أعناقهم نحو البحر ، كلما برق لهم شيء سابح ، أو لمع لهم جسم طاف ، أشاروا إليه إشارة الملهوف ، وتوقعوا أن يكون هو عيسى ، ثم تبين لهم أنه حباب الماء أو رشاش الموج ، فعادوا الى ناحية أخرى ، فشدوا اليها أبصارهم ثم لم يلبثوا أن يجدوا خيبة لظنونهم وتكذيباً لأوهامهم . ولما طال بهم الوقوف وملوا الأنتظار انصرفوا وفى قلوبهم هلع وتوقع للمحذور ، ولم تخل صدورهم من شكوك ساورتها فى أمانة عيسى وديانته . وقديماً كان فى الناس الطمع وأعماهم الجشع ، وقديماً فتنهم حب المال وأغواهم شيطان الغرور . أ يكون عيسى كبعض من خان وافتتن ؟ أ يكون عيسى ممن خذلتهم نفوسهم عندما استطال بها النضال ، وانخلع فؤادهم عندما اكفهر الجو وأظلم ؟ لم يرد الله أن يدع تلك الشكوك تساور ذكرى عيسى ، ورحم ذلك الرجل أن يهمس هامس عند ذكرى اسمه بما ثار فى صدره من شك ، فتسود بين الناس صحيفة بيضاء عند الله . فأرسل الموج حاملاً جسمه نحو الشاطىء ، فرأى الناس بعد بضعة أيام من غيبته وانقطاعه جثته ملقاة على الشاطىء ، ولا تزال حولها أكياس الذهب التى كان بعث بها صلاح الدين معه الى المدينة . فرأى الناس عنـــد ذلك جثة شهيد قضى وهو يؤدى الأمانة ، وجاد بالنفس وهو فى سبيل الخير والمجد .

رحم الله « عيسى العوام » ! وكم فى الناس من مثل عيسى ؟ . غير أن التاريخ لا يذكر منهم أحداً إلا فلتة ليشير الى أن بين المجهولين الآف الألوف من أفذاذ الأبطال .

محمد فريد ابو حديد

٢ ـ من روائع عصر الأحياء

حياة بنفونوتو تشلليني مكتوبة بقلمه

مثل أعلى للترجمة الشخصية

للأستاذ محمد عبـــد الله عنان

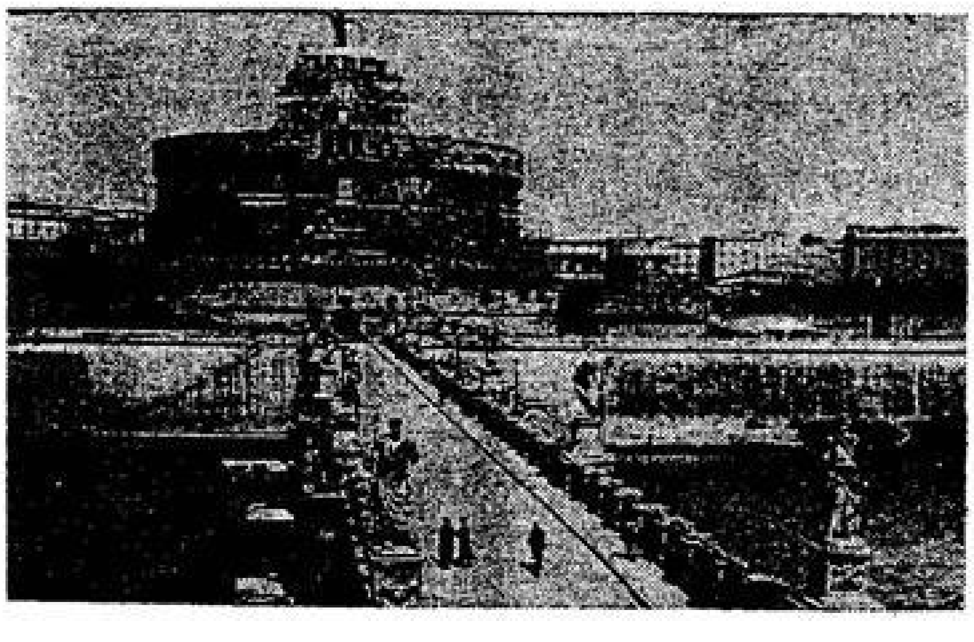
لم ينعم بنفونوتو تشلليني بالسكينة طويلاً بعد الحوادث العاصفة التى خاضها ، وبعد أن فقد عطف البابا وحمايته . وفى ذات يوم وقعت مشادة بينه وبين صديق قديم من مواطنيه كان برومة وكان يدينه بشيء من المال ، وسبه ذلك الصديق بألفاظ جارحة ، فغلب عليه عنفه المعهود وضربه فى رأسه بحجر فسقط مغشياً عليه . وأبلغ الحادث الى البابا ، فأمر بالقبض على تشلليني وشنقه فى مكان الجريمة . ولكن تشلليني شعر بالخطر الذى يهدده ، واستطاع أن يفر من رومة فى الوقت المناسب . وقصد الى نابولى ، وأقام بها حيناً ، واتصـــل بدوقها وحظى بعطفه ورعايته ؛ والتقى هناك بحبيبته انجليكا الصقلية . ثم وصـــله خطاب من الكردينال دى مديتشى حاميه القـــديم يأمره فيه بالعودة سريعاً الى رومة ؛ فسافر اليها فى الحال ومعه انجليكا ؛ واستقبله الكردينال بترحاب وطمأنه على نفسه وحريته ؛ وبعد أيام قلائل استطاع أن يزور البابا كلمنضوس ، وأن يقدم اليه « مدالية » بديعة من صنعه ، ثم سأله الصفح والرعاية بكلمات رقيقة ؛ فأعجب البابا بهذه التحفة ، وأمره أن يصنع له تحفاً أخرى تمثل بعض مناظر التاريخ المقدس ، ووعده بالعفو والرعاية . ولكن البابا لم يعش طويلاً ليحقق وعده ، ومرض وتوفى بعد أيام قلائل ؛ وحدث على أثر موته ذلك الاضطراب الذى يحدث عادة قبيل انتخاب البابا الجديد ؛ ولبث بنفونوتو يرقب الفرص ؛ ولكنه ارتكب فى تلك الأثناء جرماً جديداً ، وقتل رجلاً آخر من رجال البطانة يدعى بومبيو تحرش به ذات يوم بكنيسة القديس بطرس ، فسار اليه ولقيـــه على مقربة من منزله وطعنه بخنجره بين أصدقائه وأعوانه فألقاه صريعا . ويقص علينا تشلليني هذا الحادث الدموى وأمثاله فى عبارات صريحة هادئة ،

كأنها حوادث عادية لا خطورة فيها ، ويصور لنا بذلك مبلغ اضطرام نفسه ، ومبلغ استهتاره بالحياة البشرية

وانتخب الكردينال فارنيسى لكرسى البابوية باسم بولس الثالث ، وعهد الى تشلليني بصنع نماذج نقوده ، وأعطاه عهداً بالأمان . ولكن جماعة من خصومه وأصدقاء بومبيو القتيل لبثوا يدسون له لدى السينور بير لويجى ولد البابا حتى اعتزم القبض عليه ، ولكن بنفونوتو علم بهذه المؤامرة فى الوقت المناسب ففر الى فلورنس ، وأقام بها حيناً يخدم أميرها الدوق الساندرو دى مديتشى . وهنالك أصابته حمى شديدة كادت تقضى عليه ؛ فلما برئ من مرضه ، عاد الى رومة بعد أن استيقن أنه لم يبق ثمة ما يخشاه من كيد خصومه . وكان البابا يستعد فى ذلك الحين لاستقبال الامبراطور شارلكان ، فعهد الى تشلليني بعمل صليب بديع من الذهب المرصع بالجواهر ليهدى الى الامبراطور ، وتحلية كتاب للصلاة ليهدى الى الامبراطورة . ويصف لنا تشلليني هذه الزيارة التاريخية ، وكيف شهد استقبال البابا الامبراطور ، وقدم اليه الكتاب المرصع وخاطب جلالته بفصاحة وجنان ثابت ؛ وكيف عكف بعد زيارة الامبراطور على صقل جوهرة بديعة أهداها الامبراطور للبابا وتركيبها فى خاتم بديع الصنع . وكان تشلليني دائماً هائم الذهن والخيال ، يهوى التنقل والمخاطرة ، فما كاد ينتهى من صنع التحف البابوية حتى اعتزم تنفيذ مشروع قديم عنده ، هو السفر الى فرنسا

وسرعان ما نفذ عزمه ، وسافر الى فرنسا بطريق سويسرا وألمانيا ، مع خادم فتى يدعى اسكانيو . ولما وصل الى باريس سعى لرؤية فرنسوا الأول ملك فرنسا ، فاستقبله بترحاب فى فونتنبلو ؛ وسافر بنفوتوتو فى ركبه الى ليون ؛ وهنالك مرض ولزم فراشه ، وأصابت الحمى فتاه اسكانيو ؛ فكره المقام فى فرنسا ، وعول على الرجوع الى رومة ، وغادر فرنسا فى أول فرصة ، فوصل الى رومة بعد رحلة شاقة ؛ وافتتح له حانوتاً كبيراً فخما ، واستأنف عمله ، واتسعت موارده ؛ ولكنه لم يكن يتمتع بذلك العطف البابوى القديم الذى كان يستظل برعايته وحمايته ؛ وكان القدر من جهة أخرى يهيئ له أروع مفاجأة عرفها فى حياته . ذلك أنه كان يستخدم عاملاً من بروجيا ، وكان يدينه ببعض المال ؛ ففر الرجل من حانوته ولم يؤد ما عليه ، فطالبه بنفونوتو بواسطة القضاء وحصل على حكم بحبسه ؛ فاستشاط الرجل غيظاً واتصل ببعض أتباع السينور بير لويجى ولد البابا وكان يعرف عندئذ بالدوق كاسترو ، وأفضى اليه أن تشلليني يملك ثروة طائلة من الجواهر ، وأن هذه الجواهر إنما هى من جواهر الكنيسة ، سرقها تشلليني وقت الحصار حينما كان فى حصن سانت انجيلو ؛ وأنه يجب القبض عليه قبل أن يفر مرة أخرى . فأثمرت هذه السعاية ثمرها ؛ وفى ذات صباح جاء ضابط الشرطة مع سرية من الجند الى حانوت تشلليني ، ونبأه الضابط بأنه أضحى سجين البابا ، وأنه مكلف بأخذه الى حصن سانت انجيلو حيث يعتقل الأكابر والرجال المتازون ؛ ثم أحاط به عدة من الجند ، وجردوه من سلاحه ، ثم اقتادوه الى الحصن ، وهنالك ألقى الى غرفة فى البرج الأعلى ؛ وكانت هذه أول مرة يذوق فيها مرارة السجن ، وكان يومئذ فى السابعة والثلاثين

***



حصن سانت أنجيلو

كان حصن سانت انجيلو فى ذلك العصر أمنع معاقل رومة ؛ ولا يزال الحصن الشهير قائماً على مقربة من قصر الفاتيكان وميدان القديس بطرس ، على ضفة نهر تيفيرى ؛ يشهد بطرازه العجيب ومناعته الخارقة بما انتهت اليه هندسة القلاع فى العصور الوسطى من الأحكام والتقدم . ولقد أتيح لكاتب هذه السطور أن يزور حصن سانت انجيلو مراراً وأن يتجول فى أقبيته ومخادعه المظلمة ، وأن يرقى الى ابراجه الشاهقة ، وأن يتأمل طويلاً في جنبات ذلك

الأثر المدهش ، وهو اليوم يستعمل متحفاً حربياً تعرض فى طابقه الأول أسلحة العصور المختلفة ، ولكن طبقاته العليا لا زالت خالية تعرض لنا بعض الآثار الغريبة ، وأخصها الجناح الذى كان يسكنه البابوات كلما التجأوا الى الحصن ، وغرفة نوم البابا بولس الثالث وسريره وكرسيه . على أن أروع مافى الحصن مخادعه المنيعة الواقعة فى الجهة الخلفية ، وهاوياته السحيقة التى تنساب الى أعماق مظلمة لا يدرك غورها . وهنـــالك مخادع معينة ، اشتهرت على كر العصور بمن زج اليها من العظماء والسادة ؛ فهذا مخدع تقول الرواية إنه هو الذى سجن فيه بنفونوتو تشلليني ؛ وهذا مخدع تقول إنه هو الذى زج اليه جاليليو ، وآخر زج اليه جوردانو برونو وهكذا ؛ ولقـد لبث هذا الحصن المروع عصورا سجنا لمحاكم التحقيق (التفتيش) ، وكان مقبرة لكثير من العلماء والأحبار الذين قضوا نحبهم فيه ضحية المطاردة الدينية ؛ ولا يزال السائح المتفرج يشعر فيه برهبة تلك العصور وروعتها

زج بنفونوتو تشلليني الى مخدع فى البرج الأعلى ، لا تزال تعينه لنا الرواية حتى اليوم ؛ ولبث ثمانية أيام منسياً لا يفاتحه أحد بشئ ، وفى اليوم التاسع قدمت الى السجن لجنة من ثلاثة على رأسها حاكم رومة ، ووجهت الى تشلليني تهمة اختلاس مقدار من الحلى الرسولية وقت أن كان يعمل أيام الحصار بمدفعية الحصن ، وأسر اليـه البابا كليمنضوس أن ينتزع الحلى الرسولية من اطاراتها ؛ وأن قيمة هذه الحلى قدرت بمبلغ ثمانين ألف جنيه (كرونا) ، وأن عليه أن يردها أو يرد قيمتها ، والا فانه يترك ليرسف فى سجنه . وعبثاً حاول تشلليني أن يقنع اللجنة ببراءته ، وأن الحلى الرسولية مرصودة فى دفاترها فلتراجع فيها ، وأن دفاتره رهن تصرف اللجنة لترى أنها فى منتهى الدقة ، وأنه قد خدم الكرسى الرسولى بفنه واخلاصه مدى أعوام طويلة ، فلا يحق أن يجزى بمثل ذلك القصاص . ولما نقل دفاعه الى البابا أمر بمراجعة الحلى على قوائمها فوجدت تامة لا ينقصها شئ . ومع ذلك ترك تشلليني يرسف فى سجنه ؛ وكان البابا يحمله سعى بطانته ، قد أصبح يرى فى تشلليني رجلاً شريراً يجب التنكيل به ؛ وزاد حنقه عليه أن رسولا جاء الى رومه من قبل فرانسوا الأول ملك فرنسا يسعى فى اطلاق سراح تشلليني ، ورد على السفير بأن تشـلليني رجل شرير ، لا يستحق اهتمام جلالته . وكان محافظ الحصن رجلا طيب القلب فلورنسياً من مواطني تشلليني ، فعمل على تخفيف وطأة سجنه ، وتركه فى الحصن حراً طليقاً يتجول فيـه كيفما شاء مكتفياً بعهـده ألا يحاول الفرار ؛ وكان تشلليني ينفق وقته فى التجوال بالحصن وصنع بعض الحلى التى يأتيه بها فتـاه المخلص اسكانيو ، وكان يسمح له بزيارته وبأن يحمل اليـه ما شاء . ويقول لنا تشلليني أنه لم يشأ أن يفكر فى الفرار لولا أن حادثاً وقع فى السجن وحمل تبعته ، وهو أن قساً زميلاً له سرق منه قطعة من الشمع الذى يتخذ منه نماذج للحلى ، وطبع عليها مفتاح غرفته ليحاول صنعه ثم الفرار فيما بعد ، ولكنه ضبط واعتقد المحافظ أن تشلليني شريك فى هذا العمل ، فأمر باعتقاله فى غرفته والا يبرحها بعد ، وشـدد عليه الخناق ، ولم يحله من هذه القيود الا بعد أن أقنعه تشلليني ببراءته ؛ وهنا أدرك تشلليني خطورة موقفه ، وأيقن أنه سيبقى عرضة لهذه المفاجآت الخطرة ؛ إذا قضى عليه بالبقاء فى هذا الأسر ؛ ونمى اليه أيضاً أن البابا يصر على اعتقاله ، وأن مساعى الملك فرانسوا فى سبيله لم تثمر شيئاً ، فأخذ يفكر فى مصيره ويرى الانجاة له من تلك المحنة الا بالفرار

وزاده عزماً على الفرار حادث جديد وقع بينه وبين المحافظ . ذلك أن المحافظ كانت تنتابه فى بعض الأحيان أعراض جنون غريب فيتصور أنه ضفدعة أو وطواط ، أو يتصور أنه ميت يجب أن يدفن ، ففى ذات يوم من أيام جنونه سأل بنفونوتو هل يفر ويطير اذا استطاع ، فأجابه بنفونوتو ، أنه اذا أطلقت له الحرية ، فانه يصنع لنفسه أجنحة يطير بها ؛ وعنـدئذ أقسم المحافظ أنه سيعتقله كرة أخرى ويشدد عليه الحراسة ؛ وفى الحال نفذ وعيده ، وزج بنفونوتو الى غرفته ، ووضع تحت الرقابة الصارمة . ومن تلك الساعة أخذ بنفونوتو يدبر وسائل الفرار ، وكان خادمه اسكانيو قد حمل اليه أغطية جديدة لفراشه ، فمزقها شرائح وجعل منها حبـلا طويلا ، وكان لديه أيضاً خنجر ، ومقبض حديدى كبير سرقه من نجار الحصن ، فخبأ هذه الأشياء فى مرتبته ؛ وبدأ يعمل لانتزاع المسامير الغليظة التى ثبتت بها مفاصل الباب ، ويغطى مكانها بشمع قاتم حتى لا يكتشف أمره ؛ وأنفق فى هذا العمل جهداً كبير حتى انتهى منه . وفى ذات ليلة اشتدت فيها

النوبة على محافظ الحصن واجتمع حوله معظم الحرس ، اعتزم أمره . ويصف لنا تشلليني فراره في عدة صحف ساحرة رائعة كنا نحب أن ننقلها بنصها لولا ضيق المقام . وقد بدأ بأن دعا الله بحرارة أن يرعاه وينقذه . ثم رفع مفاصل الباب وعالجه حتى استطاع الخروج ، وثبت الحبل المصنوع من شرائح الأغطية بنتوء في سور البرج وأدلاه ، وعاد فرفع بصره الى السماء قائلا : « رباه ، إنك تعلم عدالة قضيتي ، فاشملني برعايتك » ؛ ثم أمسك بحبله وتدلى حتى وصل الى الأرض من ذلك العلو الشاهق ؛ وظن أنه غدا حراً طليقا ، ولكنه كان في الساحة الداخلية يفصله عن الخارج سوران كبيرا . بيد أنه لم ييأس ، ورفع قطعة كبيرة من الخشب كانت ملقاة هنالك على السور الأول وتسلقها حتى القمة ، ثم تدلى بحبل صغير كان معه الى الساحة الأخرى ؛ وهنالك رأى أحد الحراس على مقربة منه فاعتزم أن يسحقه ، وقصده شاهراً خنجره ، ولكن الحارس ولاه ظهره ؛ ثم تسلق السور الآخر ؛ وهنا خانته قواه قبل أن يصل الى الأرض فسقط من ارتفاع ، واصطدمت رأسه بالأرض وأغمى عليه ، ولكنه كان عندئذ خارج الحصن .

يقول تشلليني « وقد كاد النهار يسفر ، فهب على الهواء الصبوح الذي يسبق بزوغ الشمس ، ورد الى حواسي ؛ ولكن صوابي لم يعد تماماً ، وخيل لي أن رأسي قد فصل ، وأنني انحدرت الى عالم العدم ، ثم عادت الى قواي شيئاً فشيئا ، وأيقنت أني غدوت خارج الحصن ، وتذكرت في الحال كل ما وقع ، وشعرت بجرح رأسي قبل أن أشعر بكسر رجلي ، وذلك حينما مسستها ، ورأيت يدي قد خضبتا بالدماء ، بيد أني رأيت بعد فحصها أن الجرح لم يكن خطيرا . ثم أردت النهوض ، وعندئذ رأيت ساقي قد كسرت مما يلي الركبة ؛ ولكني لم أيأس ، واستخرجت خنجري من غمده وألقيت الغمد ، لأنه كان ينتهي بكرة كبيرة ، وهي التي اصطدمت بساقي وكسرتها ، وقطعت بخنجري قطعة من القماش وضمدت ساقي ؛ وأمسكت خنجري بيدي وزحفت على أربع نحو باب المدينة ؛ وكان الباب مغلقاً ، ولكني رأيت تحته حجراً ، فأزحته فتحرك ، فدفعته ونفذت من الخرق الى داخل المدينة . وكان بين الحصن والمدينة نحو خمسمائة خطوة ؛ ولما دخلت المدينة هجم على عدة من الكلاب ، وأخذت تلاحقني وتعضني عضاً أليما ، فسحبت خنجري وطعنت أحدها طعنة نجلاء جعلته يصيح محتضرا ، فالتف باقي الكلاب حوله ؛ وأسرعت زاحفاً على اليدين والركبتين نحو طريق « القديس بطرس » (الكنيسة) ؛ وكان النهار قد أسفر ، وشعرت بالخطر الذي يهددني . وهنا قابلت سقاء وراء حماره المحمل بالقرب ؛ فناديته ، ورجوته أن يحملني الى شرفة سلم القديس بطرس ، وقلت له انني شاب فررت من نافذة صاحبتي ، فكسرت ساقي ؛ ولما كان المنزل الذي اقتحمته منزل أسرة كبيرة ، فاني في خطر القتل ؛ ووعدته بأن أعطيه ديناراً من الذهب وأريته كيسي المنتفخ ؛ فحملني في الحال على ظهره وسار بي الى ميدان القديس بطرس ووضعني عند الشرفة ، وعاد مسرعاً الى حماره »

واستمر تشلليني في زحفه قاصداً الى منزل قريب لأميرة يعرف أنه يستطيع الالتجاء الى حمايتها وهي زوجة الدوق الساندرو مديتشي ؛ ولكن رآه عندئذ أحد حشم الكردينال كرنارو الذي يقع قصره في ذلك المكان وعرفه ، فهرول الى الكردينال ونبأه ، فأمره بحمله . فلما رآه هدأ روعه وطمأنه ؛ واستدعى الطبيب لعلاجه . وذاع نبأ الحادث في رومة ، فاهتز الشعب الروماني دهشة وإعجاباً لهذه الجرأة . وذهب الكردينال كرنارو مع بعض زملائه الى البابا وسألوه الصفح عن ذلك الرجل الموهوب ، فأجاب بالعفو ووعد الاثابة . ولكنه طلب الى كرنارو فيما بعد أن يسلمه تشلليني ليقيم عنده في أحد الغرف السرية ، فاضطر كرنارو الى تحقيق رغبته لكي يحقق له بعض مصالحه ، وكانت نيات البابا نحو تشلليني غامضة ؛ وحمل تشلليني الى القصر البابوي ، واعتقل هنالك عدة أيام ؛ وفي ذات مساء قدمت الى غرفته سرية من الجند وحملته الى حصن سانت انجيلو ، وألقته في مخدع صغير يطل على إحدى الساحات الداخلية ؛ وبذا رد الى سجنه المروع كرة أخرى ، وغاضت كل آماله في الخلاص ، وغلبت عليه الروعة والاستكانة . يقول تشلليني : « وكان قبس ضئيل من النور ينفذ الى غرفتي التعسة من ثقب صغير مدى ساعة ونصف في كل يوم ، فلا أستطيع القراءة إلا في هذه الفترة ؛ أما باقي النهار والليل فكنت أمكث صابراً في الظلام ، لا يفارقني التفكير في الله وفي ضعفنا الانساني . وكنت على يقين من أنه لن تمضي أيام قلائل حتى أقضي نحبي في

هذا المكان وفى هذه الظروف . بيد أننى كنت أروح عن نفسى ما استطعت ذاكرا أن الموت بضربة من سيف الجلاد أشنع من ذلك وأفظع ، هذا بينما أستطيع الموت هنا هادئاً كأننى فى غفوة النوم . وشعرت شيئاً فشيئاً أن لهب حياتى يخبو ، حتى اعتاد جسمى البديع على ذلك الانحلال ، وحتى شعرت أنه اطمأن الى تلك الظروف التعسة ؛ واعتزمت أن أحتمل آلامى المروعة فى سكينة وجلد ما بقى لى شىء من قوة الاحتمال » . وكان ذلك لعام ونصف من اعتقاله الأول ، أعنى فى منتصف سنة ١٥٣٩ .

« الخاتمة تأتى »

محمد عبد الله عنان
المحامى

الامتيازات الأجنبية
والضرائب

للأستاذ زكى دياب المحامى

عبثت الامتيازات ولا زالت تعبث بمرافق الدولة العامة ، ووقفت فى سبيل نموها عقبة ليس من اليسير تذليلها إلا على الأيام . وأثرت فيما أثرت على التشريع المالى تأثيراً بالغا ، ووددت لخطورة شأنه أن أفرد له هذا الفصل .

***

إن المبدأ العام الذى يحكم تشريع الضرائب فى البلاد المتمدينة هو وجوب قيام كل فرد يقطن الأقليم بقسطه فى الضريبة التى تفرض ، بغض النظر عن تباين الجنسيات . تلك هى القاعدة العامة التى يأخذ بها الشارع والتى تقتضيها حكمة التشريع . وهى تستند على فكرتين أوليتين : محلية الضرائب ، وعمومية الضرائب . والأولى بدورها تعتمد على الحقيقة المعروفة القائلة بأن سيادة الدولة محدودة فى نطاق أقليمها . وعماد الفكرة الثانية ضرورة تحمل كل فرد نصيبه من التكاليف العامة ، حتى تقوى الدولة على انجاز المشروعات الكبار التى تضطلع بها .

والآن وقد أوردنا المبدأ العام متعجلين ، نقول فى أسف شديد إن مصر أكرهت تحت عبء الامتيازات على عدم التمشى مع ذلك المبدأ الذى أخذ به العالم كله ؛ فالأجانب معفون أصلاً من الضرائب إلا اذا وافقت دولهم سلفا . وقد استطاعت مصر أن تحصل على هذه الموافقة بعد جهود كبيرة بالنسبة لأربعة أنواع من الضرائب يسوى فى جبايتها بين الوطنى والأجنبى وهى : —

أولاً : الرسوم الجمركية ، والضرائب التجارية المفروضة طبقاً للمعاهدات التجارية . فللحكومة أن تفرض من هذه الضرائب ما تراه لازماً كضريبة الكحول .

ثانياً : ضريبة الأراضى طبقاً للفرمان العثمانى الصادر بتاريخ ٧ صفر سنة ١٢٨٤ ، وهو الذى خول لهم بمقتضاه حق تملك العقار .

ثالثاً : عوائد المبانى طبقاً لاتفاق لندن سنة ١٨٨٥ ، وللدكريتو الخديوى الصادر فى ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ .

رابعاً : عوائد مجلس بلدى اسكندرية طبقاً للمادة ٣١ من الدكريتو الخديوى المؤرخ ٥ يناير سنة ١٨٩٠ .

فاذا ما حصلت الحكومة من أحد الأجانب رسوماً أو ضرائب فى غير نطاق ما ذكرناه ، كان له الحق فى طلب استردادها أمام المحاكم المختلطة ، التى تحكم طبقاً للمادة ١١ من لائحة ترتيبها فيما يمس حقوق الأجانب المكتسبة بالمعاهدات .

وفى الطريق الذى استطاعت به مصر أن تحصل على موافقة الدول على تلك الأنواع المذكورة من الضرائب تفصيل رأيت أن أبسط شيئاً منه :

وافقت الدول الأجنبية على سريان قوانين الضرائب على رعاياها فيما يتعلق بالضريبة العقارية على الأراضى الزراعية ، والضريبة العقارية على أراضى البناء ، وهما نوعان من الضرائب المباشرة .

أما عن الضريبة العقارية على الأراضى الزراعية فلم يكن يسمح قبل القرن التاسع عشر لأجنبى ما أن يتملك عقاراً فى الدولة العلية . ولم يعف الأجانب من هذا الحظر إلا عند ما حل عام ١٨٦٧ إثر مفاوضات طويلة . على أنه بالرغم من ذلك المنع السابق ، اعتاد الأجانب أن يسلكوا طرقاً ملتوية moyens derournés للحصول على تلك الملكية المحرمة ، فكان الواحد منهم يبتاع الأرض باسم شخص متجنس بالجنسية التركية . وازاء ذلك رأت الدولة

العلية أن تضع حداً لتلك الحال ، فأباحت تحت تأثير هذا العامل الملكية العقارية لكل فرد ، بغض النظر عن تباين الجنسيات . ولقد تعرض الخطر الهمايونى الصادر سنة ١٨٥٦ لهذا الموضوع ، فنص صراحة على إباحة الملكية العقارية للأجانب فى أراضى الدولة وولاياتها ، على أن يذعن هؤلاء الملاك لما يفرض على الجميع من التكاليف المالية ، فاستووا بذلك مع الأهالى .

ولكن حركة الاصلاح لم تنجح ، إذ تأجل نفاذ هذه النصوص الصريحة ؛ فحاول الباب العالى بعد ذلك مرة أخرى أن يخضع هؤلاء الأجانب للوائح والقوانين التى تسرى على الملكية العقارية ، وطلب ذلك مُلحّاً ، فأجابته الدول الى ما طلب بقانون صدر بتاريخ ١٠ يونيه سنة ١٨٦٧ الموافق ٧ صفر سنة ١٢٨٤ ، وسمح للأجانب أن يكونوا ملاكاً عقاريين للأراضى الزراعية فى الدولة العثمانية ، وألزموا بالقيام بكافة الفرائض المالية على الأراضى الزراعية – أسوة بالوطنيين – فى أى صورة تتشكل بها تلك الفرائض

ولقد خول الأجانب فى مصر حق تملك الأراضى وكلفوا فى الواقع بضرائبها قبل أن يُسن قانون ٧ صفر ومن قبل أن يسمح لهم بالملكية فى تركيا . ذلك أن الأجانب الذين حازوا فى مصر ملكية عقارية لم يفكروا فى منازعة الحكومة المصرية فى حق كانوا يرون من الطبيعى الخضوع له ، فكانوا يعتبرون الضريبة ديناً على الأرض نفسها لا على مالكها (دو روزاس ص ٤٦٥) ، ومن أجل ذلك كان غير صحيح القول – كما يرى دو روزاس – بأن فرمان ٧ صفر هو الذى قرر الضريبة العقارية على الأجانب فى مصر .

تلك هى الأدوار التى مر بها تشريع الضرائب العقارية على الأراضى الزراعية وخضوع الأجانب لها .

أما الضرائب العقارية على أراضى البناء فقد قبل الأجانب سداد الضرائب العقارية عن الأراضى الزراعية بعد اقتناع وتسليم بوجاهة الطلب . ولكنهم رفضوا جميعاً الوفاء بضريبة أراضى البناء حتى بعد صدور فرمان ٧ صفر الذى صادقت عليه الدول ، والذى تقضى مادته الثانية بإلزام الأجانب بالضرائب على الأراضى الزراعية والأراضى المبنية . وفى انكار هذا الحق وعدم النزول على ارادة القانون تحميل ثقيل للنص الصريح .

ولا عجب فلقد ذهبت المحاكم المختلطة مذهبهم وعززت وجهة نظرهم فى أحكامها ، فقررت أنه برغم اطلاق النص فى قانون ٧ صفر وشموله الضرائب العقارية عن الأراضى بنوعيها ، فان العرف قد أكسب الأجانب حق اعفائهم من الضرائب على أراضى البناء . ونحن لا يكفينا ازاء الدور الذى تلعبه المحاكم المختلطة فى موضوعنا هذا أن نمر سراعاً على حكم لها ، بل سنبين فيما بعد أكثر أحكامها معلقين على بعضها عندما نرى ضرورة لذلك .

وأخيراً وبعد لأى وافقت الدول على تطبيق دكريتو سنة ١٨٨٤ المتعلق بالضريبة على الأراضى المبنية على رعاياها ، وكانت تلك الموافقة سنة ١٨٨٥ .

هاتان الضريبتان المباشرتان يخضع لهما الأجانب حالاً فى مصر بعد الجهود المضنية التى بذلت للموافقة عليهما وبخاصة للموافقة على ضريبة المبانى ، فمن انكار تام لمشروعيتها ، الى عبث بالنص صريح ، الى أحكام منتقدة تصدر من المحاكم المختلطة ، ولا أُرْجِعُ أنا هذه المحاورات والتمحل من الطرف الأجنبي الا الى رغبة كمينة فى النفس الأجنبية تدفعها دائماً الى أن تجعل فى يدها جماع الحقوق وأكثر المنافع .

ولسنا فى حاجة الى أن نبين كيف وافقت الدول على النوعين الآخرين من الضرائب ، فلقد حمّل دكريتو ٥ يناير سنة ١٨٩٠ فى المادة ٣١ منه الأجانب عبء عوائد مجلس بلدى الاسكندرية ، شأنهم فى ذلك شأن الأهالى ، لما لبلدية اسكندرية من شخصية معنوية ممتازة ، ونظراً لتمثيل الأجانب فيها تمثيلا صحيحاً . أضف الى ذلك كثرتهم فى الثغر ، فلو تخلصوا من عبء الضرائب فقدت بذلك البلدية مورداً هاماً .

والحكومة المصرية بما تبرمه من معاهدات تجارية مع الدول الأجنبية أن تفرض الضرائب التجارية والرسوم الجمركية .

***

أما المحاكم المختلطة فلقد لعبت دوراً خطيراً فى الموضوع ، فكلما همت الحكومة راغبة فى فرض ضريبة جديدة حال بينها وبين ما تبنى عدم اعتراف المحاكم المذكورة بحق الحكومة فى فرض ضرائب جديدة تُحَمّل بها الأجانب فلا تستطيع

ازاء ذلك شيئاً . فلا بد من موافقة الدول سلفاً ، ويجب أن توافق هى مقدماً على كل ضريبة مستحدثة . وكل اجراء مالى سن به قانون أو شرع فى سنه وكان يلقى على عاتق الأجانب عبء ضريبة أو فريضة مالية أياكان نوعها .

ووقف قرار الجمعية العمومية بالمحكمة فى سبيل فرض ضريبة السيارات التى شرعت الحكومة فى سنها أخيراً ورأت أن الحكومة تريد بذلك أن تفرض نوعاً مستتراً من الضرائب العقارية على الأجانب لأن تلك الضريبة كما تراها هى رسوم لاستعمال الطريق العام .

وأخيراً وبعد جهود عادت فأقرتها . وقضت تلك المحاكم فى القضية التى رفعها الفيكونت روفو نتارس سنة ١٩١٢ بأن الضرائب التى تفرضها مجالس المديريات للصرف منها على المنافع العامة ليست خاضعة لشروط موافقة الجمعية العمومية المقررة فى مادة ٢٤ من القانون الصادر فى أول مايو سنة ١٨٨٣ .

وقضت كذلك فى عدة قضايا ، منها قضية شركة سكة حديد القاهرة الكهربائية، وقضية أوجست قساجيه ضد مديرية البحيرة .

وترى المحاكم المختلطة أيضاً فيما يتعلق بالأشخاص المعنوية أنها إن كانت مؤلفة من الأجانب تخضع للضرائب المباشرة التى تقررها الحكومة المصرية على الأشخاص الطبيعيين المصريين .

وخلاصة القول أن المحاكم المختلطة انتهت الى التفريق بين الضرائب المباشرة وغير المباشرة ، فهذه الأخيرة يجوز فرضها ، أما الأولى فيجب لفرضها موافقة الدول ، على أن ذلك القيد قديم نشأ نتيجة لعرف فاسد منتقد لا نتيجة نص صريح .

ومما يستنبط من ذلك أيضاً ومن مجموعة الأحكام التى لم نشأ أن نورد كل ما لدينا منها أن للحكومة أن تفرض ضريبة مباشرة أو غير مباشرة على رعايا الدول غير المتمتعة بالامتيازات، وعلى الشركات المساهمة المؤسسة فى مصر وقد حكم بأن جنسيتها مصرية ولو كان أعضاؤها أجانب ، وان كانت تشملها فى حالة تقاضيها نظرية الصالح المختلط . ولكن ذلك لا يزيل مالها من صفة مصرية يظهر أثرها فيما يتعلق بالضرائب .

[بقية البحث فى العدد القادم]

زكى دياب

نقابة للأدباء الشبان

لأديب كبير

أخرج اليوم من معتزلى إذ سمعت ضجة حسبتها ضجة معركة حربية ، وتحركت نفسى لمرأى ميدان تلك الضجة ، فعز علىّ أن أرى الصرعى يئنون من الألم وجراحهم تجرى بالدماء ، وأن أرى العماليق تزأر ، وترغى وتزبد ، وسيوفها تقطر من دماء ضحاياها ؛ وعولت على أن أنزل الى الميدان لألقى فيه نصيبى من الأذى إذا لم يتح لى أن أنصر ضعيفاً أو أنتصر لمظلوم .

وقد يحسب قارئ أنى أهزل فى قولى — ولا بأس عليه إذا هو ظن ذلك — فانى لا يضيرنى أن يحسب قارئ أنى أهزل ، ما دام لا يظن فىّ أنى أسخر منه أو من سواه ، فانى لا أحب أن يظن أحد فىّ أننى أسخر منه ، فان السخرية مُرة الطعم ، وقد ذقتها فوجدت قبحها فوق كل قبح .

ولكنى مع ذلك أرجع الى نفسى فأقول : إننى لا أخشى من أن يظن أحد فىّ أننى أسخر ، فقد طالما سخر كبار الأدباء من قرائهم ، ولا يزيد قراؤهم مع ذلك إلا إعجاباً بهم ؛ بل إن بعض شيوخ الأدب قد زاد وبرز فى ذلك الباب إلى أن قال لقرائه فى صراحة عجيبة إنه يسخر منهم ، وإنه عالم بأن القراء لا يعجبون بالكاتب الأديب أشد الاعجاب ، إلا إذا تفنن فى السخرية بهم . فلا بأس علىّ إذن إذا حسب أحد القراء أننى ساخر ، فاننى قد أصل بذلك الى إعجابه وإكباره .

وإنى هنا قاصد الى الأدباء الشبان أدعوهم الى اتباعى والأخذ برأيى ، بعد أن شهدت صرعاهم فى النضال الأخير مع مشيخة الأدب وكباره . وقد يقول قائل وكيف تجعل نفسك بين الشبان وقد بلغت من السن فوق مبلغ الشبان ؟ ولكن ذلك القول لن يثنينى ، فانى لا أردع بمثل هذا العنف ، وإنى لا تزال فىّ بقية من الشباب تكفى لأن تبرر مدخلى فيهم وانخراطى فى سلكهم . على أن الأديب لا يعد شاباً إذا كانت سنه من الشباب ، فان الشباب والشيخوخة فى الأدب لهما اصطلاح خاص واعتبار موضوع . فالأديب الشاب هو الذى لم يبلغ من الشهرة مبلغاً مذكورا ولو كان قد نيف على الخمسين ؛ والأديب الشيخ هو من ضرب اسمه فى

الخافقين ولو لم يكن ممن بلغوا سن الثلاثين أو الأربعين . وعلى هذا فأنا شاب فى عرف الأدباء ، لأننى بحمد الله قليل الحظ من ذيوع الاسم ، بل أكاد لا أسمع اسمى يذكره ذاكر إلا فى أمر من أمور هذه الدنيا البعيدة عن عالم الأدب ، ولقد حبب إلىّ الخمول والبعد عن الشهرة منذ اقترن ذلك الخمول باسم الشباب ، فانى كنت دائماً أحب الشباب واسم الشباب ولو كان مقترناً بالذم ؛ وقد كان لى صديق — عفا الله عنه — عرف فىّ ذلك الطبع ، وكان يحلو له أن يشتمني ؛ ولكنه مع ذلك كان حريصاً على مودتى ، فدفعه خبثه الى أن يجعل سبابه لى مقترناً باسم الشباب ، فكان اذا رآنى بدرنى بقوله : « ما هذا الذى فيك من طيش الشباب ؟ » وقوله : « إنك تظهر فى عملك هذا ضروباً من جهل الشباب » وقوله : « إنك والله ملء بنزق الشباب » . فكنت أقبل الشتم ما دام دفيناً فى وصف الشباب المعسول ، وبذلك توصل صديقى الى ما شاء من سبابى ، ولم يخش أن يخسر شيئاً من مودتى . ولم أفطن الى حيلته الخبيثة إلا بعد لأى ، ولكني مع ذلك لم أعاتبه ولم أغضب عليه ، بل بقيت راضياً بما ينالنى من شتمه لأحظى بوصف الشباب من ورائه . وعلى هذا فلست إلا حفياً بدخولى فى زمرة الشبان الأدباء ، قانعاً بوجودى بينهم . ومادمت كذلك فانى لا بد مذمرهم على الشيوخ ، ومعصبهم ومحرضهم . وأول آيات ذلك التعصيب أننى أدعوهم اليوم الى تأليف نقابة لهم ، لتكون جامعة لكلمتهم ، ورابطة لهم عند الملمات اذا ما فكر الشيوخ مرة أخرى فى أن يصبغوا لهم العيون بلون الدماء .

وأى شيء يستنكر فى دعوتى هذه الى تأليف نقابة للأدباء الشبان ؟ وهل فى ذلك بدعة أو ضلالة ؟ إن الأديب الشاب شبيه بالعامل الفقير الذى لم يدخر بعدُ مالاً ، ولم يتأثل شيئاً من حطام الدنيا ، والشيوخ الأدباء هم الذين ادخروا وتأثلوا . ألسنا نراهم اليوم يقولون للشبان إنكم مدينون لنا بكل شيء ؟ أليسوا قد أعلنوا للملأ أنهم الأوصياء على انتاج الأدب وتوزيعه ؟ وما دام هذا هكذا — كما يقول شيخ منهم — فانّ الأمر لا بدعة فيه ولا ضلالة ؛ فقديماً اجتمع ضعفاء العمال لكى يحموا أنفسهم من وقعة أصحاب « رءوس الأموال » بهم ، فلما أن فعلوا أظهروا للعالم أن العمل شيء واجب أن يرعى فيه الحق ، وأن يتخذ فى معاملته العدل .

فهلموا الى العمل أيها الأدباء الشبان .

وإنى منذ اليوم أجعل نفسى ردءاً لمن يدخل منكم نقابة الأدباء الناشئين أدفع عنهم عادية الشيوخ ، وأقف دونهم إذا ما سمع أحدهم يزأر أو يزمجر ، أو اذا ما رؤى بعضهم يرغى أو يزبد ، ولست أقف هذا الموقف لأنى آنس فى نفسى قوة فوق قوة الشاب أو قدرة على الدفاع لم يؤتها سواى منكم معشر مساكين الأدباء ، بل أقف موقفى هذا متدرعاً بدرع قلدت فيه بعض شيوخ الأدباء ، فقد رأيت أحدهم عفا الله عنه ، وزاده بسطة فى الأدب ، وأمتع به بابى الجد والفكاهة فى الكتابة ، وحفظ عليه دهاءه وبهاءه — ولا مؤاخذة اذا لم يسعفنى الخاطر الكليل بسجعة خير من تلك — أقول رأيت ذلك الصديق القديم قد لجأ إلى حيلة خلقها له عقله القوى ، وهى أن يبدأ نزاله وطعانه بأن يتبرأ من كل ما كتب فى الماضى وما يكتب فى الحال والاستقبال من نثر ونظم ، ومن جد وفكاهة . فاذا ما وثق من أن الناس انخدعوا بذلك واعتقدوه ، أقبل على المسكين أو المساكين الذين اختارهم لطعانه فما زال يخزهم ويضحك ، ثم يطعنهم ويضحك وهو يتسلى بما يراه من عنف حركات مساكينه وعلو صراخهم . فاذا مادفع الألم أحدهم إلى الدفاع أو الانتقام وسدد طعنته إلى عضو من أعضائه قال له ثابتاً غير منزعج « ومن أدراك ان هذا العضو يهمني أمره ؟ ومن قال لك أنى أعبأ بطعنتك لى فى هذا الموضع أو ذاك ؟ » فيصدقه المسكين وتنفجر عيناه بدموع الحنق والعجز ظناً منه أن هذا المنازل متحصن فيما لامطمع فيه ، ثم يرمى بحربته أو سهمه ، ويعدل عن انتقامه ، وتلك حيلة فطنت لها دون سواى من الأدباء ، وستكون لى عدة فى نزال الدفاع عن أفراد النقابة إذا ما التأم أمرهم ، وتم اجتماعهم ، فاذا هم جعلونى نقيبهم جعلت نفسى فداءهم ، ولن يصيبنى بفضل حيلة صديقى الشيخ أذى ولا ألم ، وسأجعل همى أيها الأدباء الشبان إذا ماوفقكم الله إلى اختيارى زعيماً لكم أن أقوم فيكم بدعوة أو « دعاية » كما يقول بعضهم تكون لكم فيها بركة ان شاء الله ، وذلك أن أنصح لكم أن تقللوا من الاهتمام لما ينالكم من وراء ما تؤلفونه ، وأن تقفوا من مؤلفاتكم موقف الناظر « المتفرج » لتروا مايقول الناس فيها ، ولكم الحق فى أن تضحكوا ملء أفواهكم من سوا كم سخرية إذا رأيتم أنه لم يوفق الى فهم مافى مؤلفاتكم من جمال أو حقيقة

وبذلك تكونون قد وقفتم من ناقدكم على سوأة — فاذا لم تستطيعوا ذلك ، ورأيتم أن الناقد قد أخذ عليكم مسامع الناس فاساء عندهم ذكركم ، فانى أنصح لكم أن تروضوا أنفسكم على فلسفة الأستاذ الذى وصفت لكم حيلته حتى تصلوا بعد حين من رياضتها على تلك الفلسفة إلى مرتبة القدرة على أن تنظروا إلى مؤلفاتكم فى شىء من الاحتقار ، أليست مؤلفاتكم من صنعكم ؟ وإذا لم تكن معجبة ولا باهرة ، أليس فى طاقتكم أن تخلقوا سواها ؟ فاذا كانت باهرة ولكنها قد ظلمها النقاد ، أليس فى استمراركم على التأليف وإتيانكم بعد الآية الآية الأخرى ، واتحافكم الناس بمؤلف فى أثر مؤلف أقوى دليل على حسن استعدادكم ، وعلو كعبكم ؟

وبعد ، فهذه نصيحة أخرى ، وهى أن يؤلف من يؤلف منكم لأنه مندفع إلى ذلك بميل فى نفسه لا لكى يطلع الناس منه على مايمدحونه به ، فالأديب الصحيح من ألف لنفسه أولاً ، ولا تظنوا أنني سأجتزىء من واجبات النقابة بالنصح لكم ، بل سأتجه بكم نحو نضال يجعل المشايخ يطلبون عفو الشبان وهم جاثون خاضعون مذعنون ، وليس فى خطتى شىء عجيب ، فانى لن أفعل شيئاً أكثر مما يفعله نقباء سائر النقابات ، فانى اذا ماحزبكم أمر سأدعوكم إلى الاعتصاب والأضراب عن التأليف والكتابة اضرابا تاماً ، فيعدل عندذلك عن الاقتراب من الأقلام كل من يكتب منكم فى مجلة أو صحيفة ، أو من يؤلف الكتب سواء أكان ممن يكتبون فى الجد أم فى الفكاهة ؛ وإذا ما رأى بعضكم أن ذلك غير ممكن لتغلب شهوة الكتابة عليه مهدنا له السبيل بأن نجعل فى دار النقابة مطبعة ونجعل لها صحيفة ونقصر قراءتها على أفراد النقابة أو أعضائها كما يقولون أحياناً ، وعند ذلك يجد شيوخ الأدب أنفسهم عدداً ضئيلاً ، كما حدث لأشراف رومة من قبلهم منذ قرون ، فلا يستطيعون أن يخرجوا جريدة ولا مجلة ، ولا يجدون شيئاً ينتقدونه ويظهرون بنقده سيادتهم فتقف دواليب أعمالهم ويعضون البنان أسفاً على احراجكم واغضابكم ، ويلجئهم الحرص على مصلحتهم إلى طلب الصفح وإلى معاملتكم بالعدل والحق . حقاً قد يستريح الجمهور بضعة أيام من القراءة ، غير انه قد يستجم فى أثناء هذه الأيام قدرته على الاستقلال فى التفكير فيكون أقدر على أن يزن أقوال مشايخ الأدباء فيكم وحكمهم عليكم ، وعند ذلك لا أتشدد فى مطالبى ، بل سأقتصر على طلب واحد إلى مشايخ الأدباء ، وذلك أنهم إذا شاءوا انقد مؤلف أحدكم فهم بين أمرين لا ثالث لهما : إما أن يذكروا محاسنه ومساويه كما قال أحد قدماء مشايخ الأدب ، وأن يعدلوا فى الحكم ماداموا يجعلون عنوان كتابتهم « نقد كذا » وإما أن يجعلوا عنوان كتابتهم « محاسن كذا » ويكتفوا بذكر محاسنه أو « مساوىء كذا » ويكتفوا بذكر مساوئه ، فاذا هم قبلوا ذلك الشرط أبحت لكم العودة إلى معاونتهم ومشاركتهم ، وإن هم أبوه مضينا فى الأضراب حتى تلجئهم ضرورة الحياة الى النزول عند العدل .

فهل من مجيب أيها الأدباء الشبان ؟ «أديب»

وفاء الطــــائر

للآنسة أسماء فهمى
درجة شرف فى الآداب

امتقع وجه الشمس ، وخبَت أشعتها ، وعلاها اصفرار ، وأصابتها رعشة ، وغشى الأفق حمرة الوجد فى ساعة الغروب ، ثم وجمت الطبيعة ، واطمأن الجدول فى سيره ، ورق النسيم واستولى على الكائنات شعور منقبض حزين . . .

ثم حالت نضرة الحقول فى الأصيل ؛ ونظر الناس الى الشمس الغاربة فآثروا الرواح ، وتململت الماشية ، وقلق الصغار ، فسارع القرويون الى جمع شتات أدواتهم من فؤوس وسلات ، وامتطوا دوابهم فصارت تعدو بهم يدفعها الحنين والشوق الى الدار بعد نصب النهار ؛ وسرعان ما ازدحمت بالعائدين الطرق والمسالك الموصلة الى القرية . وكلهم مفتون بروعة المساء ، الانسان والحيوان فى ذلك سواء . . .

وأمام الدور فى القرية تجمهرت النساء والأطفال ، وسرت الحياة فى الارجاء ، وتطاولت الأعناق لاجتلاء طلعة القادمين كما لو أن أمد الشوق والفراق قد طال . . .

والطير لمحت بدورها احتضار الشمس من بين الأغصان ، فتبادلت النظرات ، وتجاوبت بالأغاريد كأنها تذكرت أمراً ذا بال ، وسرعان ما جمعت جموعها وغادرت أسرة الأغصان ، وحلقت فى الفضاء أسراباً تندفع اندفاعاً نحو العش بقوة الحنين وعزم الجناح . . والحق ليس هناك أروع من منظر الطير ، يدفعها الحنان نحو العش فلا تعود تأبه بتدليل الغصن ولا بجمال

الزهر ولا بوفرة الحب . ولا بالمرح والتغريد . . .

ولكن طائراً جميلاً يمتاز بقوة تغريده وشدة جرأته ، وتدفق مرحه وحيويته ، أغرته أكوام القمح الذهبية فترك أفنان الشجر وكاد يقع في شراك الفلاح لولا أن أنقذته سرعة قفزه ، فنجا بأعجوبة بعد أن أصابه خدش في الجناح . ولم يدر الطائر لشدة فرحه بالنجاة حقيقة ما أصابه الا عندما حان ميعاد الرحيل للعش ، وناداه الرفاق فرفرف بجناحيه وفاضت نفسه بنشوة الحنين ، ودفع جناحيه محاولاً أن يأخذ مكانه في مقدمة السرب ، ويكون كعادته أول من تضمه أحضان الوكر .. وصاح صيحة الطرب ، واندفع الى الأمام كالسهم ، ولكن لم يلبث أن أخذ منه الجهد ، إذ اتسعت شقة الجرح . فترنح في سيره ، وأخذ يدور حول نفسه ثم استسلم لجاذبية الأرض . . وسرعان ما استحال طيرانه الى قفز . . ونظر أمامه فوجد السرب قد توغل في الفضاء فداخله الهم ، ولكن بقي لديه شيء من الأمل الذي كانت تحمله اليه بقايا أسلاك الشمس الغاربة ، فصار يتعلق بها كما يتعلق الغريق بالأعشاب الطافية على وجه اليم . . على أن شعاع الأمل سرعان ما انطفأ مع أشعة الشمس ، وانتشر الظلام في الأرجاء ، وتسربل الكون بحلة سوداء . . والطائر المسكين لا يزال بعيداً عن العش ، بينما الطيور الأخرى كانت في تلك الآونة تنعم بدفء الوكر وحنان الأهل ، وتستقبل الظلام في هدوء واطمئنان ؛ والناس والماشية بلغوا مستقرهم ، والليل يهمس حولها : نعم عقبى الدار . . .

أخذ الطائر الشريد يسير على غير هدى في دياجير الظلام واليأس — يرتطم بالحوائط والجدران والأشجار ، ويتعسر في الوحل والشوك ، وقد كان في وسعه لو أراد أن ينزوي في ركن من الأركان ، أو يقضي الليل فوق غصن من الأغصان ، ولكنه لم يشأ أن يتخذ عن عشه بديلاً ، بل آثر الجهد والنصب آملاً أن تسوقه الأقدار بعد طول السهاد إلى العش الوثير المحبوب . . . واستحالت في نظره حرية الفضاء إلى سجن قاتم ، وجمال الشجر الى قبح دميم ، ونفح النسيم إلى شواظ من نار ، وأنسى الطائر فقد العش كل ما كان ينعم به من لذة ومتعة وشدو ، طليقاً في سماء الصفاء والجمال . . .

وبقي على تلك الحال من القلق والاضطراب إلى أن قاده الحظ العاثر إلى كوخ فلاح ينبعث منه نور ضئيل ، فاندفع اليه في ساعة يأسه وحيرته دون تفكير . وهاجت الأطفال وماجت عند مارأت وسطها الطائر الجميل ، واجتهدت في حصاره وإلقاء القبض عليه ، فاشتد هلع الطائر وقاوم مقاومة الأبطال ، ولكن آلام جرحه اشتدت ، وازداد تخبطه وتكرر سقوطه ، وأخيراً وقع في الميدان صريعاً ، فهجمت عليه الأعداء ، ولكن سرعان ما تراجعت ووقفت مبهوتة صامتة مأخوذة برهبة الموت . . .

ولم يعلم الأطفال والكبار شيئاً عن سر دخول الطائر في ظلام الليل ، ولو علموا سبب حيرته واضطرابه ، وأنه قاوم القدر وأبى أن يهجع في غير العش الرؤوم اخلاصاً منه وولاء ، لنثرت عليه الزهور والرياحين ، ولشغل مكاناً من القلب أسمى من المكان الذى يشغله آلاف الناس — الذين لا يتعصبون في الحياة لأمر ، ولا يتطرفون في الغرام بشيء ، ولا يفضلون داراً على دار . . بل قد لا يعبأون أن تضحى سعادة أوطان بأكملها . . . بينما يموت طائر صغير شهيد الوفاء للعش . . .

أسماء فهمي

من الشعر المنثور

المدينـــة الهاجعة

للأستاذ خليل هنداوى

مهداة الى مدينتى الصغيرة الراقدة رقاداً عميقاً على الشاطئ الأزرق . . . صيداء ؟
خليل

خاطر أزعج نفسى يا له من خاطر !
ما له من أول ما له من آخر

***

دعوا مدينة البحر تنم هادئة ، فقد أرقها يقظة الشاطىء ،
لا توقظوها اذا جاء الفجر . . . إنها نائمة .
نامت عن الأرزاء والشجون .
واستسلمت للأحلام الجميلة وأطبقت عليها الجفون .
من فاته فى اليقظة الهناء
فليطلب النوم ، ففيه شفاء
وليغر أحلامه بألوان الضياء
فتصبح الروح بها ناعمة
ألا لا توقظوها . . . إنها حالمة .

***

نامت فى غابر الزمن على الشاطىء الأزرق نوماً عميقاً ،
وفى النوم تتبدل الخاطرات ، وتتغير الأرواح ،
إذ لا سكون فى عالم الحركة ، ولا وقوف فى عالم الضوضاء .
تبـدلت مدينتى وهى راقدة ، وهبت فلم تر من آثار أخواتها إلا أطلالاً بالية ، ورسوماً عافية .
فمشت بين مدائن غريبة حائرة ذاهلة ، مشية أهل الكهف بعد يقظتهم !
رجعت الى شاطئها الأزرق كما قفل أولئك الى كهفهم ،
لأن الحياة تنكرت لها ولهم
فنامت . . . ولا تزال نائمة
لا توقظوها . . . إنها حالمة .

***

يهوى على قلبى أسى مبهم
أكتمه قسراً فلا يكتم
ألا أيها الأسى فى أية جانحة تجثم ؟
لا خمر تقوى على أمرك !
ولا غادة تقوى على قتلك . . .
أى أسى فى روحى السائمة ؟

***

تذوقت أيها الغريب جمال الصحراء الذى لا تنتهى حـدوده كما لا تنتهى لها حدود ،
وفنيت مع طيوبها ، وامتزجت مع ألوانها
وجريت مع (فراتها) الصامت ، ورتلت مع أطيارها ،
فمالك لم يشبعك جمال ، ولم تذهلك هذه الأشكال ؟

***

فيك وحشة من كل شىء ، لا يغلب عليها شىء ،
ولا تنير آفاقك المظلمة شمس ، ولا ينفذ اليها قمر
لأن فى روحك وحشة من كل شىء . . .
لا الطبيعة تشبع نفسك ، ولا عبيرها يسكر روحك .
لأن مدينتك الصغيرة بعيدة عنك . . .
وإن لم يكن لك فى مدينتك — أيها الغبى — إلا الصخور والأمواج ، فانها ستدعوك اليها .
لا حبيب فى زواياها يناديك .
ولا صديق يناجيك .
الرمال التى تحسبها جامدة ميتة . . . الرمال التى كنت تعبث بها طفلاً تناديك .
تناديك لتحتضنك . . . هى مبعث وحشتك ، وموئل ذكرياتك .
للصخور الصلدة روح ، وللأمواج المتقلبة روح
تحيا كلها فى حنايا روحك
هى نائمة كمدينتك النائمة . . .
لا توقظوها . . . إنها نائمة

***

ترقد مدينتى الصغيرة فى كل شىء أراه ، حتى فى ذرات الرمال وقزعات السحاب .
ويرن صوتها فى كل مبعث صوت ، حتى فى وقع الامطار .
فأين أفر من وجهها ، وكيف أصم اذنى عن صوتها ؟

وكل الأشياء التى نحيا فيها تحيا فينا .
هى حية فى نفسى . . . مدينتى الصغيرة
هى مبعث وحشتى فى هذه الحياة الغريبة .
هى التى تجذبنى اليها وتخيم فوق رأسى فى غربتى كالسحابة السوداء ،
وهى مجمع ذكرياتى التى تصطف للقائى فى كل زاوية من زواياها ،
وفى كل ثنية من ثناياها

***

سأحاول أن أنسى . . . وسيساعدنى الزمان على النسيان ،
وأية ذكرى وأية خطرة تستطيع أن تثبت أمام سلطان الأزمان ؟
لكن شاطئك الأزرق الجميل . . شاطئك الذى امتزج دمه بدمى ،
وخفق قلبه فى قلبى ، أنّى لى أن أنساه ؟ . .
هو كالقطرة التى تنعكس فيها كل السموات والنجوم . . .
ألا هنيئاً للجالس على شاطئك الازرق فانه مالك كل شىء ؟

صيداء — خليل هنداوى

دنيا الأدب

بقلم محمد قدرى لطفى

ليسانسيه فى الآداب

ليست هى دنيانا . فما ينبغى أن يكون هذا الأدب منها ، وليست هى عالمنا ، فما يجب على الأدب أن يدخل فيه ، وانما هى طبيعة الأدب تأبى أن يكون من دنيانا فى شىء ، فان أكثر دنيانا قبيح ، وأكثر الأدب جميل . وعماد دنيانا الحقيقة وعماد دنيا الأدب الخيال ، والعقل فى دنيانا عنصرها الأكبر ، والعاطفة فى دنيا الأدب عنصرها الأول ، والمرء فى دنياه يرى بعينى رأسه ، ويرى فى دنيا الأدب بعين قلبه ؛ وهو فى الدنيا مادى ، قد يمسك بالزهرة فيقطعها فى غير رحمة إلتماس عبيرها ، فيظل به حتى ينفد ، ثم يلقيها كأن لم تبهره لحظة بجمالها . ومنتنعشه برهة بأريجها ، وهو فى دنيا الأدب روحى ، إذا أمسك بالزهرة فانما يمسها فى رفق ، وإذا التمس شذاها فانما يفعل فى حذر واحتياط ، حتى إذا أعجبه عبيرها لم يقتطفها ولم يلقها ، وانما تراه يستخلص من عبيرها الطيب بيتاً ينظمه ، أو قصيدة ينشئها ، أو سطوراً يكتبها ، وتراه يغوص فى قرار المعانى ويصعد إلى عنان البلاغة ليسجل للخالق حسن الصنعة ودقة الخلق وجمال التكوين ، وتراه يوفى الزهرة حقها من الاعجاب والاطراء ، ويبادلها حسنا بحسن ومتعة بمتعة . والمرء فى دنياه يتكلم فيما يشاء بما يشاء ، وهو فى دنيا أدبه لا يتكلم إلا فيما حرك شعوره وهز عاطفته ، فاذا فعل فبا للفظ المختار وبالمعنى المنتقى ، والمرء فى دنياه حين يتكلم لا يكاد يقع قوله إلا من نفوس قليلة مهما تكثر فلن تخرج عن الحصر ، ولن تفوق العد ، وهو فى دنيا الأدب يتكلم فيلتقى بعواطف الجموع ويضرب على أوتار القلوب ، وقد ينتقل قوله من لغة إلى لغة وينتشر حديثه من لسان إلى لسان ، فيفنى هو وما قال باق على الدهر خالد على الأيام ، وقد يظل المرء فى دنياه من غير صاحب ، وقوله فى دنيا الأدب يلقى الصحاب فى كل مكان ، ويتخذ سميراً فى الجماعات أو خليلاً فى الوحشة ، أو مؤنساً فى الوحدة ، يصادف من كل قلب مبتغاه ، ويلقى عند كل امرئ قبولاً ، ويقع من كل نفس موقع البرء من السقام

ودنيانا محدودة وان ترامت حدودها ، مقيدة وان اتسعت قيودها ، ودنيا الأدب لا تعرف الحد ولا تعرف القيد ، فالأدب يعيش فى كل مكان ويحيا فى كل زمان ، يتناول كل شئ ، وقد يتخذ لنفسه موضوعا من لا شىء ، وليس توخى الجمال فيه ولا التزام أوجه الحسن فى فنونه قيداً له ولا عيباً فى دنياه ، وانما هو الجمال طبيعته وعنصره ، ما أن يفقده حتى يخرج من دائرة الأدب إلى دائرة الكلام البحت والحديث الصرف . فالشعر إن فقد الجمال كان نظما فحسب ، لا هو بالشعر ولا هو بالنثر ، قد وقف بين الصناعتين لا يدرى أهو من هذه أم هو من تلك ، والنثر إن فقد طلاء البلاغة لم يكن من الفن فى شئ ، وكما تغلو الأشياء فى دنيانا وترخص ، يغلو الأدب فى دنياه ، وتنحط قيمته تبعا لمقدار الجمال فيه ، وأكثر موازين دنيانا الكم ، وميزان دنيا الأدب الكيف .

على أن دنيا الأدب وان كانت جمالاً كلها فليست نعيما كلها ، وان كانت إعجابا كلها فليست تخلو من العجب ، فقد أقام البؤس فيها إلى جانب الجمال ، وسكنت الفاقة فيها إلى جانب الحسن ، وكثيراً ما تحالفا على غير فكاك ، وتوافقا على غير خلاف ، شأن دنيا الأدب فى ذلك شأن دنيانا ، فانك لتجد فيها الوجه الجميل فى المسكن الذليل ، وغالباً ما يلقاك الشرف الرفيع فى الكوخ الحقير ، وكثيراً ما تحل السعادة حيث ترق الحال ، ويقيم الهناء حيث يحل الفقر .

ودنيا الأدب لا آخرة بعدها ، ولا إمهال فيها ، وإنما يلقى صاحب الأدب فيها حسابه سريعاً فيجزى به أو يعاقب عليه ، فما هو إلا أن يظهر أهل دنياه على ماأتى من عمل فني حتى يتولاه النقاد من قومه بالحساب ، يحاسبونه حسابا فيه يسر حيناً ، وكله عسر أحياناً ، وحساب أهل الأدب على عسره ليس يخلو من عجب ، فلا الخير فيه خير بالاجماع ، ولا الشر فيه شر بالاجماع ، وإنما الخير عند زيد شرٌّ لدى عمرو ، والشر يراه هذا خيراً ، والخير فى عرف ذاك شر ، قد تفاوتت الموازين ، وتباينت المكاييل ، وليت شعرى متى يشاء ملائكة النقد أن يكون لدنيا الأدب ميزان يزن به الجميع ، وكيل يكيل به الجميع . فقد خلق الناقدون وكل معه ميزانه ، وكل فى يده كيله ، فاختلفت أحكامهم على العمل الفني الواحد ، وتعددت أقوالهم فى انتاج الأديب الواحد ، ولعل دنيا الأدب لم تظلم صاحب الأدب حين أباحت له حرية الدفاع عن آثاره الأدبية والرد على محاسبيه ، والتماس الحق لجانبه . ومن غريب دنيا الأدب أنها تبيح حساب المرء حياً وميتاً ، فيتناول النقاد سيرته بالتحليل ويتولون حياته بالتمحيص ، ويظهرون الناس على أقواله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وانك لتجد الشاعر أو الناثر قد فارق دنياه منذ قرون ، وأسدلت السنون عليه وعلى قومه حجابا من النسيان ، ومع ذلك فهو فى دنيا الأدب حى مذكور لا يزال النقاد يحاسبونه على شعر قرضه ، أو نثر كتبه ، أو قصة حاك أطرافها ، ولا يكتفون من ذلك بالمئات من المرات .

ومما يحاسب المرء عليه فى دنيا الأدب عدا الأجادة فى الفن أو التقصير فيه ماقد يرتكبه من سرقة لثمار العقول أو نتاج العواطف فينتحل لنفسه ماليس له . غير أن الحساب على هذا الذنب ليس كما ينبغى له من العسر والشدة ، وليس كما يتفق مع خطره من القسوة والقوة ، وإنما هو مباح أو كالمباح حتى خشيت دنيانا هذه الأباحة من دنيا الأدب ، وخافت على أهلها من دعاة الأدب أن يبيحوا فيها ماليس الى إباحته من سبيل ، فأفسحت صدرها لمن يلجأ اليها من دنيا الأدب ، شاكياً ما استحله الغير من ثمرات قريحته ووحى خاطره فحمته بتشريعها ، وأحاطته بسياج من قانونها .

وفى دنيا الأدب من المفارقات العجيبة والسير الطريفة ما لا تتسع له الصحائف ، فكيف يقوى كاتب على دنيا بأكملها يحصى مابها ويعدد مافيها ما ؟

محمد قدرى لطفى

٨ ـ أعيان القرن الرابع عشر

للعلامة المغفور له احمد باشا تيمور

الشيخ مصطفى السفطى

مصطفى السفطى بن مصطفى الفاكهانى السفطى بن على السفطى ابن احمد شلبى ، نسبة الى سفط القطايا ، ولد بمصر القاهرة حوالى سنة ١٢٥٠ ، وأرسل الى المكتب فى السابعة من سنيه ، ثم تنقل من مكتب لآخر حتى حفظ القرآن الكريم ، واشتغل بتجويده فى الأزهر ، ثم شرع فى طلب العلم على شيوخ عصره ، فقرأ الكفراوى على أحد العلماء المبتدئين فى التدريس ، فكان يحفظ العبارات ولا يفقه لها معنى ، ولما أعيى عليه أمره ، وتعذر عليه إعراب أمثلة من غير هذا الكتاب أعاد قراءته ، ولكنه لم يستفد شيئاً . وكان بجوار داره دار السيد احمد البقلى أحد المدرسين بالمدارس ، وله ولد أراد أن يقرأ القرآن مع المترجم ، فشكا المترجم له من تعسر النحو عليه ، فأشار عليه بشراء متن الآجرومية وأمره بحفظه ، ثم شرع فى إعرابه له على الطريقة الأزهرية ، فلم يستفد شيئاً أيضا ؛ وشكا من ذلك للشيخ محمد الدمنهورى ، فأمره بترك طلب النحو كلية حتى ينسى ما علق بذهنه منه ، ففعل واقتصر على الفقه ، فحضر ابن قاسم على الشيخ البيجورى ، وكان يتفهمه بخلاف النحو ، فمالت نفسه اليه فحضره مرة ثانية على الشيخ فتوح البيجرمى ، ثم مرة ثالثة على الشيخ عبد الرحمن القبانى أحد تلاميذ الشيخ فتوح المذكور ، وكان يطالعه لاخوانه المبتدئين .

ثم قرأ الكتب المتداولة بالأزهر ، ولم تفتر نفسه عن طلب النحو على ما لاقاه فيه من الصعوبة ، فصار يتردد على الشيخ محمد الدمنهورى ومعه متن الآجرومية فقط ، وصار الشيخ يقول له اقرأ هذه الجملة ثم تفهم معناها بنفسك ولا تنظر لأقوال الشراح ، فيفعل ، فتارة كان يخطئ وتارة يصيب ، وسهل عليه فهم هذا العلم بهذه الطريقة ؛ وكان أحد أصحابه مبتلى بمثل ما ابتلى به ،

وأخبره أن عند على افندى العروسى شرحاً للرملى على الآجرومية ، فاستعاراه منه وقرآه معاً ، فكانا يفهمان ما فيه فهماً جيداً . ثم اجتمع المترجم بانسان كفيف البصر اسمه الشيخ على الفيومى ، له باع فى العربية ، فقرأ عليه مع صاحبه كتاب الشيخ خالد والأزهرية ، والقطر ، وابن عقيل ؛ ثم أعاد المترجم القطر على الشيخ الشبيني بالأزهر ، وقرأ الخطيب على الشيخ على الأشمونى عم الشيخ الشيخ محمد الأشمونى الشهير ، وقرأ التحرير والمنهج على الشيخ مصطفى المبلّط ، وهو آخر حضوره فى الفقه . ثم قرأ علوم البلاغة بالأزهر ، والعروض مع إعادة البيان بالمطالعة مع بعض تلاميذ رفاعة بك : كقدرى باشا وابراهيم بك مرزوق . وبعد ذلك انتخب مدرساً بالمدرسة التجهيزية سنة ١٢٩٠ فى أول نظارة رياض باشا على المعارف ، وكانوا إذ ذاك يقرأون بها الأنموذج للزمخشرى فى النحو ؛ ثم كُلف بتأليف رسالة فى الصرف ففعل ، وقرأها للتلاميذ نحو ثلاث سنوات ، ثم اتفق مع بعض المدرسين على تأليف رسائل فى البلاغة والصرف بتوسّع أبسط من الرسالة الأولى ، وقرأ بها سنوات ، ثم أُمر بقراءة العروض والقوافى فى المدارس ، فاستحسن رسالة أبى الجيش وأقرأها ، ثم وضع رسالة فى العروض والقوافى أتم بها ما أراده أبو الجيش ، ولكن وقع ما منعه من تقديمها للمدارس ؛ ثم كلف بوضع رسالة فى علم الرسم ، فوضع رسالته « عنوان النجابة فى قواعد الكتابة » وقرئت بالمدارس .

ونقل بعد ذلك للمدرسة الابتدائية المسماة (بالمبتديان) ، وكان ذلك سنة ١٣٠٦ ، فألف بها رسالة بالاشتراك مع غيره فى المترادفات ، ثم نقل الى المدرسة السنية الخاصة بتعليم البنات ، فبقى بها سنتين ألف فيها رسالته « محاسن الأعمال » ، ولما عرضت على المجلس العالى بنظارة المعارف استحسنها أعضاؤه جداً وقالوا : الأولى أن تكون بيد المعلمات لا بيد المتعلمات . ثم أخذت قوته فى الوهن ، وبصره فى الضعف لكبر السن ، فعرض استقالته على النظارة مبيناً السبب . فأحيل على الكشف الطبى ، ثم أحيل على المعاش .

وله من التآليف غير ما تقدم رسالة فى الصرف اسمها « قرّة الطرف » أوسع من المتقدمة ، وأخرى فى النحو وهى « منحة الوهاب فى قواعد الاعراب » ، وهى نظم . ومن شعره :

الحمد لله لا فقر يضرّ ولا … غني يغرّ فلا حزن ولا فرح
وليس لى مطمع فى الناس يلجئنى … للذم والمدح إن ضنوا وإن سمحوا
وأسأل الله حاجاتى فيمنحني … من فضله فوق ما أهوى وأقترح

وله :

قد يسر الله أسباب المعاش لنا … بالعقل والرزق موقوف على القسم
ليعلم العبد أن الله يرزق من … يشاء بالفضل لا بالسعى والهمم
فيطلب الرزق بالأسباب معتمداً … على الذى أوجد الأشياء من عدم
ولا يخاف ولا يرجو سواه ولا … يحيد عن منهج الأحكام والحكم

وكان رحمه الله طيب الخلق ، حسن المعاشرة ، اعتكف فى داره بعد فصله من المدارس على الاشتغال بالعبادة ومذاكرة العلم مع بعض من يسمر معهم من اخوانه وأخلائه ، أو استقلالاً بنفسه ، وكان فى مبتدا أمره مولعاً بالسماع ، وتشبث بتعلم الموسيقى ، فلازم الشيخ محمداً شهاب الدين الشاعر المشهور ، وكان متقناً لها ، فأخذها عنه وأتقنها ، ولكثرة مطالعته لكتب الأدب صارت له ملكة أدبية ، ومعرفة بجيد الشعر ونقده . ثم ما زال على هذه الحالة المحمودة حتى أرهقه الكبَر وضعف عن المشى ، فلزم داره لا يخرج منها إلا لصلاة الجمعة فى أقرب مسجد اليه ، ومع ذلك فلا يبلغه إلا بمشقة زائدة . وتوفاه الله الى رحمته فى يوم الثلاثاء ٢١ رمضان سنة ١٣٢٧ .

الشيخ احمد أبو خطوة

الحنفى

أحمد بن أحمد بن محمد بن حسب الله بن على بن محمد بن على ابن مدكور بن أبى خطوة المدفون فى مطوبس ابن مدكور بن شكر بن هاشم بن محمد وهو أول من نزل بكفر ربيع منهم ودفن به ، ابن سالم المدفون بالحدّين بالبحيرة ، ابن موسى بن حسن بن احمد ابن على بن شكر بن ابراهيم بن أحمد بن شاكر بن حسن بن على ابن محمد بن على ابن السيد عبد الرحيم القنائى صاحب الضريح المشهور بقنا ابن هريدى بن جعفر بن حمّاد بن سعادة بن عبد اللطيف القاسم بن عبد الله بن عبد اللطيف بن هاشم بن عبد الجواد ابن محمد بن على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الامام الحسين بن الامام على بن أبى طالب . هكذا أملى علىّ نسبه من لفظه . . ولد فى ٢٠ ذى القعدة سنة ١٢٦٨ ببلدة كفر ربيع التابعة لتلا من أعمال المنوفية ونشأ

بها ، فحفظ القرآن وبعض المتون ، ثم سافر للقاهرة لطلب العلم بالأزهر فى ١٦ شوال سنة ١٢٨١ واشتغل فيه بالطلب وقراءة الفقه على مذهب الامام الأعظم . ومن شيوخه الشيخ محمد البسيونىّ البيبانىّ ، والشيخ أحمد الرفاعىّ الفيومىّ ، والشيخ عبد الرحمن البحراوىّ ، والشيخ عبد الله الدرستاوىّ ، والشيخ حسن الطويل

وكان أكثر اشتغاله فى المعقول على الشيخ حسن الطويل ولازم صحبته وتخلّق بأخلاقه ، وقرأ عليه بداره العلوم الحكميّة والرياضيّة فتلقى عنه شرح الهداية للميبدى ، والطوالع ، وأكثر المقاصد والمواقف ، واشارات ابن سينا بالشروح لنصير الدين الطوسىّ والامام الرازىّ ، والمحاكمات ، وبعض كتاب النجاة لابن سينا ، وأشكال التأسيس بشروحها فى الهندسة ، وتحرير أقليدس ، وفى الهيئة شرح الجغمينى ، وتذكرة نصير الدين الطوسىّ ، وفى الحساب خلاصة بهاء الدين العاملىّ بشرح البورصاوى ، والمعونة وشرح ابن الهائم وغيرها ، وفى المنطق القطب بحواشيه والمطالع والخبيصىّ وايساغوجى وغير ذلك من هذه العلوم .

وامتحن للعالمية والتدريس فى ١٨ صفر سنة ١٢٩٣ وكان مجلس الامتحان مكوّناً من الشيخ عبد الرحمن البحراوىّ والشيخ عبدالقادر الرافعىّ الحنفيّين ، والشيخ أحمد شرف الدين المرصفىّ والشيخ زين المرصفىّ الشافعيّين ، والشيخ احمد الرفاعى والشيخ أحمد الجيزاوى المالكيّين ، برئاسة شيخ الأزهر ومفتى الديار المصرية الشيخ محمد المهدى العباسى ، فلما امتحنوه أعجبوا به اعجاباً شديداً لجودة تحصيله وشدّة ذكائه فأجازوه ، إلاّ أنه اخر التدريس لسبب اشتغاله بتتميم ما كان يقرؤه على شيخه الطويل

ثم ابتدأ فى القراءة بالأزهر سنة ١٢٩٦ فقرأ به الكتب المتداولة به وغيرها ، وتخرّج عليه جمع من الأفاضل منهم السيد محمد شاكر ، والشيخ محمد حسنين العدوى ، والشيخ محمد بخاتى ، والشيخ سعيد الموجى ، والشيخ محمد الغرينى ، والشيخ مصطفى سلطان وغيرهم .

ثم جعل مفتياً لديوان الأوقاف فكانت له اليد الطولى فى اصلاحه وعاون من به على تحسين أموره بجودة عقله وحسن رأيه ، وحسبك انه دخله وإيراده مائة وعشرون ألف دينار وخرج منه وإيراده يربو على المائتين . ثم نقل عضواً فى المحكمة الشرعية الكبرى بالقاهرة ورأس المجلس العلمى للنظر والفصل فى القضايا الكبرى ، ثم انتدب للمحكمة العليا بعد ذلك فكانت له اليد الطولى فى إصلاحها ومنع شهادات الزور وإصلاح حال المحامين ، وكانت وفاته فى شوال سنة ١٣٢٤ .

حسن افندى عبد الباسط

الحُوَىّ

كان خِلاسىّ اللون يشبه الحبش ، وبوجهه أثر جدرىّ ، وكان أديباً شاعراً هجّاء ، خبيث اللسان مجيداً ، إلا أنه مقلّ ، استخدم بالاسكندرية فكان رئيس قلم فى الضبطية حوالى سنة ١٢٨٥ ، وبقى بها الى سنة ١٢٩٠ ، وكان بها إذ ذاك مصطفى صبحى باشا الشاعر المشهور ، فكان يجتمع به من بها من الأدباء والشعراء ، فيسمرون معاً ويحيون الليالى بالمذاكرة وإنشاد الشعر ، واتفقوا على تسمية مجلسهم بالمِرْبَد ، وألا يقبلوا به أحداً إلا اذا ارتضوا به جميعاً ، فكان المترجم ممن رضوا به أن يكون من شعراء المربد ، وكانت تمر عليهم ليال يقترحون فيها ارتجال الشعر ، ويعيّنون عدد الأبيات والوقت الذى يجب نظمها فيه ، فكان أحدهم اذا تعذرت عليه قافية وأعجله الوقت ارتجل كلة لا معنى لها ، أو لها معنى لا يوافق السياق وتم بها البيت ، فاجتمعت لهم من ذلك ألفاظ غريبة مضحكة سموها بالألفاظ المربدية .

ثم تنقلت الحال بالمترجم فاستخدم معاوناً بمديرية الشرقية ، ثم فصل فضاق به العيش وفتح حانوتاً بالزقازيق للصيدلة القديمة ، المسماة فى العرف الآن بالعطارة ؛ وكان أمره بها عجباً ، فانه اقتنى كتباً من مفردات الطب وقانون ابن سينا ، وصار اذا طلب منه أحدهم بيع عقّار من العقاقير ، سأله عن سبب حاجته اليه وقام الى تلك الكتب فاستخرج له منها مزاياه وما يداوى به من العلل ، وبقى مدة على ذلك حتى توفاه الله بعد سنة ١٣٠٠ .

ومن شعره يمدح محمداً فتح الباب افندى كبير كتّاب ديوان البحر :

رأيت العلا ترتاد بعلاً لنفسها ... وقد خطبتها قبل ذاك الأوائل
فقمنا سراعاً قاصدين لخدرها ... عساها بنا ترضى ويُجلى التواصل
فلما رأتنا واقفين ببابها ... أشارت لفتح الباب منها الأنامل

وكان رحمه الله على خبث لسانه طرفة من الطرف ، وأعجوبة

من العجائب : فى حسن المنادمة وحضور الذهن وسرعة الجواب ؛ رآه مرة بعضهم وهو مسافر الى الزقازيق فى انقطار ومعه جراب يحمله بيـده ، فقال له مداعباً : أظن هذا جراب الحاوى ، أى المشعبذ . فقال لا ياسيدى ، هذا جراب الحوَىّ !

ابراهيم بيك مرزوق

الشاعر

تلقى العـلم بمدرسة الألسن ، وتخرّج على ناظرها رفاعة بك رافع الشهير ، فقرأ بهذه المدرسة النحو والصرف وباقى علومها ، وبرع فى الفرنسية . وكان لرفاعة عناية خاصة فى تلقين تلاميذه العربية والعلوم الأدبية ، وتدريبهم على نظم الشعر ، فكان للمترجم حظ من هذه الصناعة ، فنظم الشعر الجيـــد من المقطّعات والقصائد ، اعتنى بجمعها بعده محمد سعيد بك ابن جعفر مظهر باشا سنة ١٢٨٧ فى ديوان سماه «الدرّ البهىّ المنسوق ، بديوان ابراهيم بك مرزوق» وطبع بمصر .

ولما أتم المترجم علومه بالمدرسة استخدم فى ديوان كان يقال له (ديوان الهرجلات) وهو خاص ببيع الخيـل والماشية التابعة للحكومة ، ثم نقل منه للقلم الافرنجى بالضبطية ، وفصل منه مدة عبده باشا ضابط مصر ، ثم عاد اليـه بعد نحو ثلاث سنوات ، وكان مدة توليه لهذا القلم كثير المعاكسة للافرنج إذا وقع أحـدهم فى سجن الضبطية ، أو كانت له دعوى بها ، فلما كان يسلم من أذاته ، حتى ضج منه وكلاء الدول وأكثروا من الشكوى ، فلم يكن يثبت عليه شيء عند التحقيق ، والسبب فى ذلك أنه كان يعتمد على إخوانه ومرءوسيه بالضبطية على إيصال الأذى اليهم سراً ، نـكاية بهم لطغيانهم على الرعيـة ، وتدرّعهم بدروع الحمايات .

وفى مدة وكالة اسماعيل باشا الخديو نقل المترجم معاوناً بمجلس الأحكام ، ثم لما تولى هذا الخديو على مصر أرسله ناظراً للقلم الافرنجى بالخرطوم قاعدة بلاد السودان ، فبقى الى أن توفى بها سنة ١٢٨٣ . وكان مربوع القامة ، أبيض اللون، قد وخطه الشيب ، ومات بعد ما تجاوز الستين ، رحمه الله تعالى .

الشيخ مصطفى سلامة

النجّارى

توفى والده وهو صغير ، فتكفل به زوج أمه ورباه ، فلما ترعرع مال للأدب ، وقرض الشعر ، فاتصل بالشيخ على الدرويش ، وتخرّج عليه فى النظم ، واتصل بعد ذلك بأسرة المويلحى ، ففتحوا له حانوتاً بالتربيعة لبيع الحرير فلم يصادفه النجاح ، ثم جعل منشئاً بالوقائع المصرية ، ولم يزل يكافح زمنه حتى اتصل بوالى مصر سعيد باشا ، وصار شاعره وتقرب اليـه ونال جوائزه ، فحسنت حاله ، واجتمع بأكابر الدولة ومدحهم وداخلهم فنال وجاهة وصار له شأن يذكر ، وجمع ما نظمه فى مدح سعيد باشا فى ديوان خاص ، وهو الذى جمع ديوان أستاذه الدرويش وسماه الاشعار بحميد الأشعار .

الكندى

« هو من الاثنى عشر عبقرياً الذين ظهروا فى العالم »
كاردانو

للأستاذ قدرى حافظ طوقان

مقدمة :

ليس أصعب على الباحث من الكتابة عن حياة عالم لم يُعطه التاريخ حقه من البحث والاستقصاء ، ويزيد فى الصعوبة التشويه الذى نجده فى حياة كثيرين من علماء العرب والمسلمين . فكم من حقائق لم تذكر ، وكم من حوادث أخذت على غير حقيقتها فسىء فهمها ، وكم من اختراع للعرب نُسب لغيرهم ، وكم من تلاعب طرأ على التراث الأسلامى فجعل كثيرين من شبابنا يشكون فى مجد أمتهم ومدنيتها وقابليتها على الأنتاج . ومن الغريب أن تجد بعض علماء الفرنجة (لبقين) فى الكتابة عن نوابغ العرب ، فهناك شخصيات عربية واسلامية لمعت فى نواح عديدة من المعرفة ، ومن الطبيعى أن يختلف اللمعان ، فبينما تراه شديداً فى فروع ، تراه فى الأخرى وفى الوقت نفسه غير شديد . ويأخذ بعض الافرنج النواحى الشديدة اللمعان ويذكرونها ويهملون النواحى الأخرى اهمالاً كلياً لا يعيرونها أى اهتمام ولا يأتون على ذكرها . ولا شك أن فى هذا إجحافاً لا يستسيغه عقل ولا يقبله منطق ، وعلينا أن نعمل جهدنا لنظهر هذه ونعطيها حقها من التنقيب والبحث . خذ ابن سينا (مثلاً) فقد اشتهر فى الطب والفلسفة ، وقليلون جداً الذين يعرفون أنه كان رياضياً وطبيعياً ، وأن له فى كل هذه جولات وآراء سديدة قيمة ، فلقد أفاد الفيزياء ببحوثه المبتكرة فيها ، كما أنه استطاع أن يقدم خدمات جليلة لبعض الفروع من العلوم الرياضية . واذا اطلعت على ترجمة حياة ابن يونس فى دائرة المعارف الاسلامية تجد أن كاتب الترجمة (H. suter) قد وفى حق ابن يونس فى نواح ولم يوفها فى نواح أخرى فلقد جهل أو نسى أو تناسى (لا أدرى) ان يذكر ان الرقاص (بندول الساعة) هو من مخترعات ابن يونس وناهيك بالرقاص والفوائد التى جنتها المدنية منه . ولا أكون مبالغاً اذا قلت إنه يندر أن تجد واحداً يعرف أن عمر الخيام كان من كبار رياضيى زمانه ومن فحول فلكيى عصره ، فلقد قدم خدمات حقيقية للرياضيات والفلك لا تقل عن خدماته للشعر والفلسفة ، وما يقال عن هؤلاء يُقال عن غيرهم .

منشؤه :

والآن . . نعود الى الكندى فنقول : قل من يجهل أن يعقوب الكندى من أشهر فلاسفة الاسلام ، ولكن قل من يعرف أيضاً أن له فضلاً على العلوم الرياضية والفلكية اذ كان من الذين امتازت مواهبهم فى نواحيها العديدة ، ومن أوائل الذين اشتغلوا وألفوا فى العلوم الدخيلة . يقول كتاب التمدن الاسلامى « . . فبعد أن كان العربُ فى صدر الاسلام يستنكفون من الاشتغال حتى فى العلوم الاسلامية . . أصبحوا لا يستنكفون من الاشتغال حتى فى العلوم الفلسفية الدخيلة ، وأول من اشتغل فيها أبناء ملوكهم . . » كان الكندى عالماً بالطب والفلسفة والحساب والهندسة والمنطق وعلم النجوم ، وتأليف اللحون ، وطبائع الأعداد . وهو يمت بالنسب الى أحد الملوك العرب ، وكان أبوه أميراً على الكوفة (محل ولادته) . وقد وُلد فى بداية القرن التاسع للميلاد ولم نتمكن أن نعثر بالضبط على تاريخ ولادته . أما تاريخ وفاته فيرجح أنه فى أواخر القرن التاسع .

درس الكندى فى بادىء أمره فى البصرة ثم أتم تحصيله على أشهر العلماء ، هذه الفرص التى لم تكن تسنح لغيره ، واستعداده الفطرى واستغلاله لكل ذلك أوجد له مكاناً ذا حرمة واعتبار عند خلفاء بنى العباس حتى أن الخليفة المأمون انتخبه ليكون أحد الذين يُعهد اليهم ترجمة مؤلفات أرسطو وغيره من حكماء اليونان . ولم يخل الكندى من أناس يناصبونه العداء إما حسداً وإما غير ذلك كالقاضى صاعد بن احمد القرطبى ، وأبى معشر جعفر بن محمد البلخى ويُقال إن هذا الأخير كثيراً ما كان يشاغب عليه ويشنع بحجة أخذه بعلوم الفلاسفة ، وقد تمكن الكندى مرة بثاقب نظره أن يتخلص منه ، وذلك بأن بعث مَنْ حسّن له النظر فى الرياضيات وفعلاً اشتغل أبو معشر بها زمناً ، ولكنه لم يوفق ، فعدل عنها الى علم النجوم ، وقد وجد فيه لذة فعكف عليه وأحب من يشتغل فيه وأصبح من أصحاب الكندى ومن المعجبين بعلمه ونبوغه

آثاره :

والكندى أول من احتذى حذو ارسطوطاليس ، كان ملماً بحكمة الهنود ، فسر كثيراً من كتب الفلسفة ووضع بعض النظريات الفلسفية فى قالب مفهوم حتى ان كتبه فى المنطق وغيره لقيت إقبالاً عظيماً ، « وله رسائل ومؤلفات فى علوم شتى

نفقت عند الناس نفاقاً عجيباً ، وأقبلوا عليها اقبالاً مدهشاً » (١)

هذا وغيره اوجد له في قلوب معاصريه حسداً فنقموا عليه وحاولوا مراراً النيل منه ، وأن يوقعوا بينه وبين الخليفة فنجحوا فى ذلك ، ولكن إلى زمن لم يطل أمده .

كان الكندى مهندساً قديراً كما كان طبيباً حاذقاً وفيلسوفاً عظيما ومنجما ماهراً ، وقد ترك آثاراً كباراً جليلة جعلت العالم الأيطالى « كاردانو » يعده من بين الاثنى عشر عبقرياً الذين هم من أهل الطراز الأول فى الذكاء ، وجعلت أيضاً « باكون » الشهير يقول « إن الكندى والحسن بن الهيثم فى الصف الأول مع بطليموس » ويقول كتاب (آثار باقية) « إن الكندى أول من حاز لقب فيلسوف الاسلام . » وكان يرجع إلى مؤلفاته ونظرياته عند القيام بأعمال بنائية كما حدث عند حفر الأقنية بين دجلة والفرات . وعلى ذكر الأقنية يقال إنه كان فى بلاط المتوكل أخوان اشتهرا بالهندسة والأعمال التطبيقية ، وهما محمد وأحمد ابنا موسى بن شاكر ، وكان يعز عليهما أن يظهر غيرهما بمظهر الماهر المتفوق ، وبذلك لم يتركا فرصـــة للنيل من كل من عرف بالمعرفة والتفوق فى علم من العلوم ، ومن الطبيعى أنه لم يكن يروق لهما أن يسمعا عن الكندى وفضله ، سيما وأنه ذو مركز عظيم فى البلاط فسعيا فى الوشاية عليه ، وكان لهما ما أرادا فى بادىء الأمر ، واستطاعا أن يحملا الخليفة يأمر بمصادرة مؤلفاته وكتبه . وكان يقال إن مراد ابنى موسى من المصادرة هو أن يستفيدا من مراجعة الكتب فى حفر القناة الجعفرية ، ولكنهما فشلا فى إنشائها فاستدعيا المهندس الشهير سند ابن على لحل بعض المعضلات التى وجداها عند حفر القناة ، فوعد بحلها وبمساعدتهما على شريطة أن يرجعا للكندى كل كتبه ، وأن يسعيا لدى ولىّ الأمر فى العفو عنه وفى ازالة ما أوجداه من فتور وسوء تفاهم .

وقال الكندى باحكام النجوم ، وكان يرجع بعض الظاهرات والحوادث الى أسباب فلكية فيستمد من أوضاع النجوم وحركاتها بعض التنبؤات . فيقال إنه نهى عن الأشتغال بالكيمياء للحصول على الذهب ، وقال إن فى ذلك تضييعاً للوقت والمال ، وقد ألف فى هذا الموضوع رسالة سماها « رسالة فى بطلان دعوى المدعين صنعة الذهب والفضة وخدعهم » . وقد افادت رسالته هذه بعض معاصريه والذين أتوا بعده ، إذ لا يخفى أن كثيراً من علماء

(١) أبو حيان التوحيدى — المقابسات — ص ٨٥

القرون الوسطى أضاعوا معظم أوقاتهم فى الكيمياء للحصول على الذهب ، وله مؤلفات فى المرئيات والبصريات وقد وضع كثيراً من نظرياتها فى قالب رياضى ، وكان لبحوثه هذه تأثير كبير على دراسات باكون (١) وواتيل ، وكتب فى الموسيقى وأعطى طرقاً لأيجاد التردد .

مؤلفاته :

وللكندى مآثر جمة تظهر فى أكثر العلوم بل تكاد تسجلها كلها فقد ألف فى الفلسفة وعلم السياسة والمنطق والحساب والكريات والموسيقى والنجوميات والهندسة والفلك والطب والاحكاميات والجدليات والنفسيات والاحداثيات والابعاديات والتقدميات ، كل هذه وغيرها مذكورة فى كتاب الفهرست لابن النديم ، وتربو على ٢٣٠ كتاباً ، وله فوق ذلك رسائل فى علم المعادن وانواع الجواهر والأشباه وفى أنواع الحديد والسيوف وجيدها ووضع انتسابها . أما تآليفه فى الرياضيات والفلك فاهمها رسالة فى المدخل الى الارثماطيقى خمس مقالات ، كتاب فى استعمال الهندى أربع مقالات ، رسالة فى تأليف الأعداد ، ، رسالة فى تسطيح الكرة ، رسالة فى علل الأوضاع النجومية ، كتاب فى أغراض كتاب أقليدس ، كتاب فى تقريب قول ارشميدس فى قدر قطر الدائرة من محيطها ، رسالة فى تقسيم المثلث والمربع وعملها ، كتاب فى كيفية عمل دائرة مساوية لسطح اسطوانة مفروضة ، رسالة فى قسمة الدائرة ثلاثة أقسام ، رسالة فى صنعة الاسطرلاب بالهندسة ، رسالة فى ظاهريات الفلك ، رسالة فى استخراج بعد مركز القمر من الأرض ، رسالة فى استخراج آلة وعملها يستخرج بها ابعاد الاجرام ، رسالة فى الحيل العددية وعلم اضمارها ، وو . . . الخ

تلاميذه :

وقد أخذ عن الكندى طلاب كثيرون منهم أبو العباس ابن محمد بن مروان السرخسى ، وكان متفنناً فى علوم كثيرة من علوم القدماء والعرب ، قرأ على الكندى وعنه أخذ ، اشتهر فى الفلسفة والطب وكان موضع سر المعتضد ، وكذلك أبوزيد أحمد ابن سهل البلخى فقد أخذ عن الكندى ، وكان له مقام رفيع ، ودعى جاحظ خراسان . ومن تلاميذه أيضاً حسنويه ونفطويه وسلمويه وغيرهم كثيرون .

نابلس **قدرى حافظ طوقان**

(١) سارطون — مقدمة لتاريخ العلم — ج ١ س ٥٥٩

من طرائف الشعر

فرحة الألم

لشاعر الشباب السوري أنور العطار

لَقَدْ صَاغَنِي اللهُ جَمَّ الشُّجُونِ   وَيَأْبَى فُؤَادِيَ إِلاَّ الْمَرَحْ
يُبَـدِّدُ أَحْزَانَ قَلْبِي الرَّجَاءُ   وَيَمْحُو صَفَائِيَ طُول التَّرَحْ
أُهَدْهِدُ أَوْجَاعِيَ الصَّارِخَاتِ   وَأُرْقِـدُهَا بِالْمُنَى وَالْمُلَحْ
سَكِرْتُ مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى انْتَشَيْتُ   فَلَسْتُ أُبَالِي بِخَمْرِ الْقَدَحْ
كَأَنِّي أَخُو سَفَرٍ لاغِبٍ   تَهَالَكَ مِنْ جَهْدِهِ وَارْتَنَحْ
فَطُوبَى لِجُرْحِيَ إِمَّا اسْتَفَاضَ   وَطُوبَى لِقَلْبِيَ إِمَّا انْجَرَحْ
تَعَلَّمْتُ بِالنَّوْحِ سِرَّ النَّعِيمِ   وَأَدْرَكْتُ بِالشَّجْوِ مَعْنَى الْفَرَحْ

* * *

سَجَتْ لَيْلَتِي وَتَرَامَى الظَّلاَمُ   وَمَالَى عَنْ خَوْضِهِ مُنْتَدَحْ
وَقَدْ رَوَّحَ الْغُيَّبُ النَّازِحُونَ   وَأَلْقَى الْمُسَافِرُ عِبْئًا فَدَحْ
وَفَضَّ الْكَرَى سَامِرَ الْعَاشِقِينَ   وَلَمْ يَبْقَ فِى الْأَرْضِ إِلاَّ شَبَحْ
يَحُومُ عَلَى عَالَمٍ نَائِمٍ   رَمَى بِمَتَاعِبِهِ وَاطَّرَحْ
يُطَوِّفُ فى اللَّيْلِ مَا يَأْتَلِي   يُنَاجِي وَيَرْعَى حَبِيبًا نَزَحْ
وَقَدْ سَكَنَ الْغَابُ إِلاَّ صَدَى   تَوَلَّهَ مِنْ وَجْدِهِ وَافْتَضَحْ
كَأَنِّيَ أُصْغِي إِلَى بُلْبُلٍ   يُثِيرُ الْمَفَارِحَ إِمَّا صَدَحْ
فَأَحْسَسْتُ دُنْيَا مِنَ النُّعْمَيَاتِ   وَأُفْقًا جَدِيدَ الْأَمَانِي انْفَسَحْ
وَأُذْنِي إِلَى هَمْسَةٍ فى الدُّجَى   وَعَيْنِي إِلَى بَارِقٍ قَدْ لَمَحْ
وَأَقْبَلَ طَيْفُكِ جَمَّ الْجَلاَلِ   تَدَثَّرَ بِالنُّورِ حَتَّى اتَّشَحْ
مَدَدْتُ يَدَيَّ وَعَانَقْتُهُ   فَنَمْنَمَ قَلْبِي وَدَمْعِي شَرَحْ
وَضَاعَ اللَّجَاجُ وَغَابَ الْعِتَابُ   كَأَنَّ الزَّمَانَ صَفَا أَوْ سَنَحْ
قَرَأْتُ بِعَيْنَيْهِ فَرْطَ الْحَنِينِ   وَشَجْوًا يُذِيبُ إِذَا مَا قَدَحْ
وَعَايَنَ بِي غَمَرَاتِ الرَّدَى   تَرِفُّ عَلَى هَيْكَلٍ قَدْ جَنَحْ
فَأَطْرَقَ مُسْتَعْبِرًا نَادِمًا   وَبَانَ عَلَيْـهِ الْأَسَى وَاتَّضَحْ
فَقُلْتُ لَهُ خَلِّ عَنْكَ الْبُكَاءَ   وَلاَ تَجْزَعَنْ إِنَّ قَلْبِي صَفَحْ
إِذَا مَنْ أُحِبُّ جَزَانِي الصُّدُودَ   هَتَنْتُ عَنَا اللهُ عَمَّا اجْتَرَحْ

* * *

... ...
... صَحَوْتُ فَلاَ الطَّيْفُ يَحْنُو عَلَيَّ   وَلاَ نِعَمٌ تُشْتَهَى أَوْ مِنَحْ
وَعُدْتُ إِلَى وَحْدَتِي رَاضِيًا   أَرَى فِى الْأَسَى غَايَةَ الْمُقْتَرَحْ

أنور العطار

يقظة الهوى

تعالى قد سجا الليـــلُ   ونام الدوح والطيرُ
تعالى قد حلا الوصـل   وطاب السهد والسمر
تعالى ضاحكى البدرا
تعالى نافحى الزهرا
تعالى طارحى الجدولْ   نشيد الأعصر الداوى
تعـــالى نرشف السلسل   ونروى روحنا الذاوى

شجتنى رنة العودِ   وصوت الناى أغرى بى
تعـــالى أنتِ معبودى   وهـذا الروض محرابى
تعـــالى فجّرى قلبى
ينابيعَ من الحب
تعالى عطّرى النرجسْ   بعطر الورد والشوقِ
تعـــالى نوّرى الحندس   بنور الحب والعشق

أيا ليـــل ألا أمهلْ   معنّى فيك ذا مأربْ
وقل للصبح لا يقبـل   وقل للنجم لا يغرب
هلمى نفحة الوردِ
هلمى ملكة الخلد
هلمى قبل أن يجفو   ويمضى الليل والبدرُ
هلمى فالهوى يغفو   اذا ما استيقظ الفجر

البصرة   فتى شط العرب

جائزة الأدب الكبرى

هنرى دو منترلان

Henry de Montherland

بقـــلم علي كامل

لمحة عن أدبه وفنه

منحت الأكاديمية الفرنسية جائزة الأدب الكبرى للكاتب الشاب هنرى دو منترلان ، فارتفع بذلك اسمه إلى مصاف أكبر الكتاب الفرنسيين المعاصرين ، وتنبهت الأذهان إلى الطابع المخصوص الذى يمتاز به أدبه كفن من فنون القصة الفرنسية الحديثة :

وهنرى دو منترلان كاتب من كتاب الشباب الذين تفتحت عيونهم على ضوء هذا القرن العشرين . ولد عام ١٨٩٦ ، ودخل مدرسة سانت كروا دو نويى . ولما شبت الحرب الكبرى خرج من المدرسة ليشترك فيها وجرح جروحا بليغة . وكان طبيعياً أن يعود منترلان وقد ملأت نفسه نزعة التشاؤم والثورة ، فقد هجر مدرسته ليخوض غمار المجزرة البشرية الكبرى وهو لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ، فعانى فيها أشهرا من الحرمان والتضحية لم يجد لها مبرراً أمام عقله الذى يفكر وقلبه الذى يحس ، كما يفكر ويحس كل أديب فنان ينزع نحو مثل عليا فى الحب والرحمة والأخاء

عاد منترلان من الحرب ضائع العزم محطم الآمال . وكان استعداده الأدبى قد ابتدأ يتفتح على ضوء تجاربه ومحنه السابقة ، فانصبت آلامه وثورته فى أدبه تلمسها من بين خفايا السطور ، وكانت إنسانيته الحزينة تدفعه — كغيره من كتاب الشباب الذين خاضوا غمار الحرب — لوصف أهوالها وما جرته وراءها من التدهور الأخلاقى والفكرى . كذلك فان (أنانية الفنان) التى تغمره كانت تأبى عليه أن يضحى بشىء دون أن ينال على تضحيته جزاء يبررها ويلتمس منه العزاء . لذا لم يغفر منترلان لأمته ولمجتمع تضحيته الكبيرة حين جرفته العاطفة الوطنية كغيره دون وعى الى ميدان القتال ليتعذب شر عذاب ويعود جريحاً بين الحياة والموت فقد الأمل فى إتمام حياته المدرسية .

ولقد كان هذا الشباب المعذب دافعاً لهنرى دو منترلان الى أن يهيم بتلك السن التى ضحى وتألم فيها ، فأصبح يمجد سن الشباب (تلك السن — كما يقول — التى لا تعترف بجميل . سن القلب والنفس . نجم الحياة المتألق) . ولقد تدرج منترلان من ذلك الى الغرام بالألعاب الرياضية لأنها المظهر الذى تتمثل فيه حيوية الشباب وجبروته ، ولأنها الوسيلة لأطالة عهد الشباب الى أبعد مدى مستطاع

و (أدب الالعاب الرياضية) فن حديث جداً فى الأدب الفرنسى . وترستان برنار هو صاحب الفضل الاول فى تغذية القصة الفرنسية بالأفكار الرياضية ومعالجة شئونها ووصف أبطالها ، وكان يحب الكتابة عن ألعاب الملاكمة وأبطالها كما فى قصته Nicola2 Bergère على أن هذه الحركة ظلت بطيئة الخطر ، ولم يتعد نشاط قادتها القليلين الكتابة فى الصحف والمجلات ، وإخراج عدد قليل من الأعمال الأدبية التى لم تكن ذات قيمة تذكر . . الى أن كانت الالعاب الاولمبية عام ١٩٢٤ فنشط أنصار (أدب الالعاب الرياضية) وأرادوا أن يدخلوا الفنون الرياضية فى القصة الطويلة والقصيرة وفى الشعر أيضاً ، وكثر عددهم واتسعت مدرستهم وأصبح كل منهم متخصصاً فى الكتابة عن فن من فنون الالعاب الرياضية ، فمنهم من هام بالسيارات مثل هنرى كستماكرز Kistemackers كما فى قصته M. Dupont Chauffeur ومشيل كورداى Kordoy فى قصته Nonsieur. Nadrme et L'auto وا كتاف ميربو Mirbeau فى قصته الشهيرة La 628-ES التى تعتبر فى نظر النقاد أروع قصة فى (أدب السيارات)

ومنهم من ولع بألعاب كرة القدم مثل جان برنييه Bernier فى قصته Tête de mêlée ولوى هنرى دستل Destel فى قصته Desroches footballeur وتعتبر قصة L, Histofre de quinze hommes لمارسيل برجيه Berger خير ما كتب فى (أدب كرة القدم)

وهناك غير هؤلاء الكتاب عدد كبير من أنصار هذه المدرسة جعلوا من شخصيات قصصهم أبطالاً لفنون رياضية أخرى مثل سباق الخيل والطيران وغيرهما.

وهنرى دومنترلان يعتبر اليوم زعيم الأدباء الشبان على الاطلاق ، وأدب الالعاب الرياضية على الخصوص . وقد برع فى الكتابة عن المصارعة . وسافر خصيصاً الى اسبانيا وتعلم طريقة مصارعة الثيران

ودرس نفسية أبطالها وأخلاقهم ثم عالج ذلك في قصته Les Bestiaires

كان أول أعمال منترلان كتابه La Relève du Matin الذي كتبه عام ١٩١٦ وظهر عام ١٩٢٠ وهو قطع من الشعر المنثور يصف فيها ذكرياته عن الحرب والمدرسة التي كان يتعلم فيها . وفي عام ١٩٢٢ ظهرت قصته Le Songe وفيها يمجد الالعاب الرياضية والصداقة التي بين الابطال الرياضيين . تلك الصداقة التي يضعها (البان) بطل القصة فوق الحب . وفكرة (البان) عن الحب هي فكرة الكثرة العظمى من أبطال الرياضة الذين يقعون فريسة النزاع الدائم بين نداءين : نداء القلب ونداء الواجب الرياضي الذي يطالبهم بالابتعاد عن النساء كيما يحتفظوا بعناصر القوة فيهم . وينتهي بهم الأمر الى انتصار النزعة الرياضية وعبادة القوة والمجد فيتضاءل مركز المرأة في نظرهم . وهم لذلك لا يؤمنون بالحب العاطفي . فالحب في نظرهم ميل جسدي اذا ماتحقق مات ما يسميه الناس بالحب ، ولذا نرى (البان) يرفض حب القلب بقسوة

ولألبان هذا رأي غريب الى حد ما . فهو يقول إن العالم خاضع لفلسفتين : فلسفة النساء وفلسفة الرجال . فالأولى تتمسك بالديموقراطية ، أما الثانية — وهي التي يؤمن بها بعناد — فهي تتشبث بالماضي المجيد وبالقومية .

وفي قصة le Paradis à l'ombre des épées (١٩٢٤) نرى منترلان يبرر اهتمامه بالألعاب الرياضية إذ يعتبرها مرحلة من مراحل تحقيق الشخصية ، على أن فكرته في علاقة الرياضة بتكوين الشخصية تتكرر بشكل أقوى بروزا في قصة (مصارعي الوحوش) Les Bestiaires (١٩٢٦) . إذ يعرض لنا منترلان نوعاً من أنواع المخاطرة الجريئة ، تلك التي يستهدف لها مصارعو الثيران يعرضها مصاغة في قالب بارع يدفعنا لاحترام أولئك المصارعين البواسل الذين يغامرون بحياتهم حباً في السيطرة وإظهاراً للقوة وامتحاناً لشخصياتهم التي لا تعتبر كاملة في نظرهم إذا عرفت للوجل معني !

وقد كتب منترلان في هذه الفترة القصيرة من حياته الأدبية عدداً كبيراً من القصص أهمها عدا ما ذكرنا قصة Aux fontaine du Désir (١٩٢٧) و Pages de Tendresses (١٩٢٨) و La Petite Infante de Costille (١٩٢٩) و La Rose des Sables و Hispano Mauresque .. وكانت آخر قصصه قصة (العزاب) Les Cilibataires

والآن قد يتساءل القارىء . كيف يبشر منترلان بقيمة الألعاب الرياضية ويخصص أدبه لخدمتها والدعوة لنشرها وهو الناقم على مظاهر العنف ، الثائر على نظام الجندية والحرب ، الداعي الى الأخاء والمحبة والتعاون ؟ ومنترلان نفسه يحس بالتناقض الظاهر بين طبيعته الثائرة المتمردة وبين نظام الألعاب الرياضية الذي يدعو اليه وما فيه من معاني الترف البرجوازي . على أنه يقبل ذلك كارهاً غير مرتاح الضمير . يقبله كوسيلة لتحقيق فلسفته التي ترى في الألعاب الرياضية — كما ذكرنا — وسيلة لأبراز الشخصية والسمو بها على سائر الشخصيات التي تحيط بها . والواقع أن منترلان قد أجاد تصوير فكرته بطريقة غاية في الابداع . فأنت تلمح من خلال شخصيات قصصه كيف تتفتح الشخصية وتسود حين يصبح صاحبها بطلاً من أبطال الرياضة . وكيف يغمر صاحبها النشاط والحيوية وعبادة البطولة التي تدفعه للاستهداف للموت راضي النفس مرتاح الضمير

وأدب منترلان أقرب إلى الرومانتيكية منه إلى الواقعية وهو في ذلك يقول (إن الواقع والحقيقة تقع عندي في المرتبة الثانية) وإذا كان كل كاتب لابد أن يتأثر بروح بعض من سلفه من الكتاب ، فان بلزاك وشاتو بريان يطبعان أدب منترلان بطابع لايمكن إنكاره وتناسيه

ويمتاز هنري دو منترلان بأسلوبه الرائع ، فثروة الألفاظ وحسن اختيارها وأدائها ، والموسيقى السامية التي تلبس عباراته فتعبر عما يدوي بين أرجاء نفسه من النزعات والعواطف هي أظهر ما يميز فنه وشخصيته بين الكتاب الفرنسيين المعاصرين .

علي كامل

مجموعة السنة الأولى للرسالة

العلوم

مدام كورى وقصة الراديوم

١٨٦٧ — ١٩٣٤

للأستاذ مصطفى محمود حافظ

مسيو ومدام كورى :

توفيت مدام كورى فى صباح الرابع من شهر يوليو الحالى بعد أن نالت من النجاح فى حياتها العلمية والعملية مالم تنله أخرى من قبل ، فانطفأ ذلك السراج المنير الذى أضاء سبيل بعض علماء العصر الحديث فى الوصول إلى أخطر انقلاب علمى حديث ، وهو النظرية الحديثة فى تركيب المادة

ولدت مارى سكلود وفسكا فى فارسوفيا عاصمة بولونيا فى ٧ نوفمبر سنة ١٨٦٧ ، ولكنها نزحت عن وطنها الأول إلى وطنها الثانى فرنسا لأسباب سياسية . فذهبت تطالب العلم فى السوربون ، وقد اضطرها الفقر إلى الخدمة فى معامل المعهد ، فكانت تغسل الزجاجات وأنابيب الاختبار لتنال من ذلك ما يساعدها على تسديد نفقات التعليم

تعرفت بالمسيو « پيير كورى » الذى كان يعمل فى السوربون هو الآخر ، وقامت تساعده فى أبحاثه التى كان يقوم بها فى ذلك الوقت فى الكهربائية وخواص الأجسام المغناطيسية فى درجات الحرارة المختلفة . وقد انتهى بها هذا الارتباط الذى ابتدأ فى المعمل الى الزواج به فى سنة ١٨٩٥ . وقد ظلا يعملان معاً احد عشر عاماً توصلا فيها إلى الكشف عن عدة عناصر أهمها « البولونيوم » و « الراديوم » . وقد كشف الأستاذ الفرنسى « بيمون » عن وجود عنصر الراديوم مستقلاً عنهما ، ولكن اسمه لا يكاد يقرن باسميهما عند الكلام عن الراديوم إلا فى القليل النادر

قصة الراديوم :

لم يكن الكشف عن الراديوم من هذه الاكتشافات التى أتت عفواً وكاد مكتشفها يتعثر فيها أثناء سيره فى عمله ، كما حدث للأستاذ الألمانى « رُنتجن » عند كشفه عن الأشعة التى تعرف باسمه ؛ ولا من تلك الاكتشافات والاختراعات التى كأنه قد أوحى بها إلى أصحابها ، كما حدث للأستاذ « ويلسون » عند تفكيره فى صنع « الغرفة القاتمة » ، وهى الجهاز الذى يمكننا من رؤية مسار الدقائق المتحركة التى لا يمكن رؤيتها بالعين ولا بأقوى ميكروسكوب [١] . بل كان من هذه الاكتشافات التى عمل لها أصحابها وكانوا يتوقعونها نتيجة لأبحاثهم الرياضية أو الطبيعية ، كما حدث عند البحث عن السيار « نبتون » فقد رآه « لفربيه » بالرياضة قبل أن يراه « جال » بتلسكوبه

اذن لا بد أن يكون قد سبق الكشف عن الراديوم دراسة بعض الظواهر التى مهدت السبيل لظهور هذا العنصر ، وهذا ما أود أن أسرده الآن مرتباً ترتيباً تاريخياً

فى سنة ١٨٩٥ ، وهى السنة التى ارتبط فيها « الكوريان » بالزواج ، كان الأستاذ « رنتجن » يمرر التيار الكهربائى فى الأنابيب المفرغة تقريباً من الهواء ، وهى المعروفة بأنابيب « كروكس » ، وذلك للكشف عن أشعة غير مرئية للعين . فلاحظ أن لوحاً مغطى بطبقة مومضة — وقد وضع عفواً بجوار الأنبوبة — قد تألق وأومض وهو فى الظلام . فاذا انقطع التيار انقطع الوميض . هذا الوميض يحدث لمواد معينة إذا سقطت عليها أشعة الشمس ، وبالأخص ما كان منها بعد البنفسجى ، وامتصت جزءاً من الطاقة الضوئية ، ثم أخذت إلى الظلام . فالطاقة الممتصة تنطلق ببطء ، وتومض المادة حتى تزول الطاقة

(١) الجهاز عبارة عن صندوق يحتوى على بخار ماء دون التشبع بقليل ، فاذا برد هواء الصندوق وأطلقت الدقيقة فانها فى انتقالها تمزق الذرات فتتأين وتصبح مراكز لتكاثف البخار . فنرى خطاً أبيض من بخار الماء المتكاثف على طول الطريق الذى أخذته الدقيقة المتحركة

الخزونة . يحدث هذا إذا عرضت هذه الأجسام إلى أشعة الشمس ، ولكن لوح « رنتجن » لم يتعرض تعرضاً مباشراً لأشعة الشمس ولا للأشعة الخارجة من أنبوبة « كروكس » لأنها كانت مغطاة بورق أسود يمنع نفاذ كل الأشعة التى كانت معروفة فى ذلك الوقت ، ولكن مادام اللوح قد أومض فيجب أن يكون « رنتجن » قد توصل إلى أشعة غير معروفة من قبل ويمكنها النفاذ من الأجسام المعتمة ، وقد سماها رنتجن « أشعة اكس » أو « الأشعة السينية » أو « الأشعة المجهولة » . ولكن عدم معرفته لكُنه هذه الأشعة لم يمنعه وغيره من دراسة خواصها ، فعرف أنها تخترق الصفائح الرقيقة المعدنية ، وأن مقدار نفاذها من هذه الصفائح يختلف باختلاف المعادن نفسها ، وأنها تؤثر على الألواح الفوتوغرافية وتلقى عليها ظلالا للأجسام المعتمة التى توضع بين مصدر الأشعة واللوح الفوتوغرافى ، وأنها تجعل الغازات موصلة للكهربائية ، وأنها تضيع شحنة الأجسام المكهربة

هذه هى نتائج التجارب الأولى التى أجريت على « أشعة رنتجن » فى أواخر سنة ١٨٩٥ ، وفى السنة التالية فكر أحد علماء فرنسا وهو الأستاذ «هنرى بيكرل» فى شىء آخر وهو : إذا سقطت « أشعة رنتجن » على جسم مومض فانه يومض ويتألق ، فهل العكس صحيح ؟ هل المادة بعد تعرضها لأشعة الشمس ثم تركها تومض فى الظلام ، تخرج « أشعة اكس » أو أشعة نفاذة مثلها ؟ للاجابة على ذلك السؤال اشتغل « بيكرل » بأملاح الأورانيوم المومضة ، فتركها فى الشمس مدة ثم لفها فى ورق أسود ووضعها فى الظلام بجوار لوح فوتوغرافى ، فوجد بعد مدة أن اللوح قد تأثر . اذن هناك أشعة خرجت من ملح الأورانيوم المومض ونفذت من الورق الأسود ، فهى كأشعة رنتجن فى ذلك ، وقد وجد لها أيضاً بقية الخواص المعروفة لهذه الأشعة . ولكن استمرار البحث بيّن له أن هذه الأشعة الخارجة ليس لها علاقة البتة بالوميض كما كان يعتقد . فالوميض يضعف عادة مع الوقت ، ولكن هذه الأشعة النفاذة لم يكن ليعتريها الضعف بمقدار محسوس . أذاب الأملاح المومضة وبلورها فى الظلام دون تعريضها لأشعة الشمس فوجدها تخرج نفس الأشعة . أخذ أملاح الأورانيوم غير المومضة فوجدها تخرج نفس الاشعاع النفاذ.

جاءت بعد ذلك الخطوة الثالثة التى كان من نتيجتها الكشف عن « المواد المشعّة » أو المواد الراديومية (١)

انقسم العلماء بعد تجارب « بيكرل » إلى فريقين : الأول ذهب يبحث عن ماهية الأشعة التى تصدر من أملاح الأورانيوم ، والثانى يبحث عن مواد أخرى لها نفس خواص أملاح الأورانيوم ، وقد تزعم هذا الفريق « مدام كورى » وزوجها ، بعد أن أبدت رأيها فى مبحث الفريق الأول من العلماء بأن قالت : إن « الفعل الأشعاعى » لأملاح الأورانيوم راجع إلى خاصية فى المادة لم تعرف بعد ولا تشبه فى ذلك أشعة رنتجن .

وأول ماوصلت إليه « مدام كورى » فى بحثها أن إشعاع أملاح الأورانيوم « خاصية ذرية » . أى أن مقدار الاشعاع يتوقف على مقدار الأورانيوم أو عدد ذرات العنصر الموجودة فى المادة المختبرة ، وليس له أية علاقة بالمواد الأخرى الداخلة فى تركيب الملح . وإلى ذلك يعزى سر نجاحها فى الكشف عن مادتين مشعتين أخريين

وجدت بقياس الفعل الاشعاعى لبعض المواد التى تحتوى الأورانيوم أن قوة اشعاعها تفوق ما ينتظر أن يكون ، على حساب أن الموجود فى المادة أورانيوم فقط . فلو كان الفعل الاشعاعى « خاصية ذرية » كما وجدت هى فلا بد أن توجد مادة أخرى أقوى فى فعلها الاشعاعى من مادة الأورانيوم نفسها . وعلى هذا الأساس بدأت « مدام كورى » تعمل لكى تفصل هذه المادة الجديدة . وقد شجعتها حكومة النمسا على المضى فى بحثها بأن أهدت اليها طناً من المعادن المحتوية على أملاح الأورانيوم المستخرجة من « بوهيميا » . ففصلت بالتحليل كل الأورانيوم الموجود فى الخامات ، ولكنها وجدت أن الباقى كان أشد فعلاً واشعاعاً من مقدار الأورانيوم المستخرج بأربع أو خمس مرات . فاستخرجت ملح البزموث الموجود فى الخامات فوجدته متحداً مع مادة فعالة مشعة سمتها « بولونيوم » نسبة إلى وطنها الأصلى « بولونيا » . ثم استخرجت ملح الباريوم الموجود فيما تبقى من الخامات فوجدته متحداً مع مادة مشعة أخرى سمتها « راديوم » أو « المشع » ، وهى تسمية موفقة ، لأن هذه المادة الجديدة تفوق فى إشعاعها « الأورانيوم » بمقدار مليونى مرة إذا قورنت به وزناً بوزن . وقد أعلنت « مدام كورى » عن هذا

(١) الأفضل تسميتها المواد المشعة لأن اسمها Radioactive Substances مشتق من كلمة Radius اللاتينية ومعناها « شعاع »

الاكتشاف العظيم فى رسالة قرأتها أمام « أكاديمية العلوم » فى باريس سنة ١٨٩٨

وقد أثارت رسالتها الرغبة فى نفوس كثير من العلماء للبحث عن ماهية الاشعة المنطلقة ذاتيا من المواد المشعة ، وقد كان من قادة هذا البحث سير « جوزيف تومسون » وسير « إرنست رثر فورد » (وهو الآن لورد رثر فورد) . فلم تأت سنة ١٩٠٠ حتى كان من المعروف أن هناك ثلاثة أنواع من الاشعاع تصدر عن المواد الراديومية .

الأول — اشعة لاتقدر على النفاذ من ورقة رقيقة ، وقد سميت « الاشعة الالفية » . وقد درسها « رثر فورد » فى المدة الواقعة بين سنة ١٩٠٣ ، ١٩٠٩ فعرف أنها ليست أشعة بل دقائق متحركة بسرعة كبيرة ، وأنها مشحونة بشحنة كهربائية موجبة ، وأنها عبارة عن ذرات غاز الهليوم الذى تملأ به المناطيد الحديثة . وقد استخدم « رثر فورد » هذه الدقائق كقذائف يرمى بها الذرات فيحطمها ، وكان من نتيجة بحوثه فى ذلك أن وضع النظرية الذرية الحديثة ، القائلة بأن الذرة عبارة عن نواة متركزة فى الوسط موجبة التكهرب ، يدور حولها الكترونات سالبة .

الثانى — أشعة يمكنها النفاذ من ألواح من الالومنيوم سمكها بضعة مليمترات ، فهى أكثر نفاذا من الاشعة الالفية وقد سميت « الاشعة البائية » . وفى سنة ١٨٩٩ تمكن «بيكرل» و «جيزل» و « كورى » من معرفة أن هذه الاشعة تنحرف بتأثير المجال المغناطيسى ، فهى ليست أشعة بل دقائق كهربائية سالبة .

الثالث — أشعة أشد نفاذا من سابقتيها كشفها « ڤيار » فى سنة ١٩٠٠ ، وسميت « الاشعة الجيمية » ويمكنها النفاذ من ١٥ بوصة من الصلب أو ٦ بوصات من الرصاص . وهى من نوع أشعة رنتجن .

وفاة بيير كورى :

انهالت على « الكوريين » التهانى والاسئلة بعد كشفهما عن الراديوم . وفى سنة ١٩٠٣ منحتهما الجمعية الملكية بلندن مدالية « داڤى » . وفى نفس السنة قسمت جائزة نوبل للعلوم الطبيعية بينهما وبين «هنرى بيكرل» . وقد عين « كورى » استاذاً للطبيعة فى السوربون ، واختير فى سنة ١٩٠٥ عضوا فى «اكاديمية العلوم» بباريس . وبعد ذلك بعام واحد ، بينما كان خارجا من الجامعة ، صدمته عربة ومرت عليه فقتلته لساعته . وقد أثر ذلك فى زوجته حتى خيف أن تترك الاشتغال بالعلوم بعد تلك الفاجعة ، ولكنها تشجعت واستعانت بذلك الصبر الذى لازمها فى أبحاثها العلمية الشاقة . وقد عينت استاذة للطبيعة فى السوربون مكان زوجها .

وقد تمكنت « مدام كورى » من فصل عنصر الراديوم من أملاحه ، وهى عملية شاقة لأنه سريع التحول الى الايدروكسيد ، وعينت وزنه الذرى فوجدته ٢٢٥ ، ولكنها تمكنت بعد ذلك من تصحيحه الى ٢٢٦،٢ ، ثم وجده « ثورب » ٢٢٧ . وقد نالت من أجل ذلك جائزة نوبل فى العلوم الكيماوية ، وبذلك تكون قد نالت جائزة نوبل مرتين وهو مالم يظفر به عالم من قبل .

تأثير الراديوم فى خلايا الجسم :

استخدم الراديوم فى بحوث نظرية وعملية . ومن النظرية الكشف عن كيفية تركيب المادة وتحطيم الذرة . كذلك تقدير عمر الكرة الارضية بالاستعانة بما يوجد من الراديوم بين الصخور فانه يتحول ذاتيا الى مواد أخرى تنتهى بالرصاص بنسب معينة فى أزمنة معينة . ومن البحوث العملية التى يستخدم فيها الراديوم معالجة بعض الاورام الخبيثة مثل « السرطان » . وأول من عرف تأثير الاشعاع الخارج من المواد المشعة على جلد الانسان وخلاياه هو « بيكرل » فى سنة ١٩٠١ . ولكنه دفع ثمناً لذلك التهاب جلد صدره زمناً طويلا . فقد كان يحفظ أنبوبة صغيرة بها مواد مشعة فى جيب صديريته ، فاصيب فى مدة أربعة عشر يوما بالتهاب جلدى حاد تحت موضع الانبوبة ، سمى « حرق بيكرل » ومنذ ذلك الوقت بدأت البحوث تترى فى تأثير الراديوم على الخلايا المريضة فى الجسم ، فافتتح فى سنة ١٩٠٦ فى باريس « المعمل البيولوجى للراديوم» . وفى سنة ١٩٠٩ افتتح مركز يماثله فى لندن ولكن لا يزال النجاح غير كامل فى استخدامه للعلاج ، وان كان موثوقا به فى الاضرار بالخلايا السليمة اذا أسىء تعريضها اليه .

وفاة مدام كورى

ظلت « مدام كورى » تحاضر فى السوربون ، وتجرى بحوثها العملية حتى هذا العام . فاصيبت بفقر فى الدم وانتقلت الى مصح حيث ماتت فى الساعة الرابعة من صباح ٤ يوليو سنة ١٩٣٤ بعد أن خلدت اسمها فى صحائف المجد .

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

القصص

من الواقع

طارق الليـــل

للأستاذ أديب عباسى

كان ذلك فى ليـــلة من ليالى الحرب الكبرى وفى شطرها الأخير ، وكنا يومئذ لا نعلم من أهوال ذلك الصراع العنيف إلاّ مايستطيع الصغار — وما رُكّب فى رءوسهم من عقول محدودة — أن يعلموا . فلم تكن الحرب عندنا إذ ذاك إلا تلك القترة وذلك الوجوم يعلوان وجوه الكبار ، وإلا ذلك القلق المقيم فى اللحاظ ، وتلك الهمسات يتبادلونها فيما بينهم ، ولا ينُون فى التلطف حيناً والمخاشنة حيناً آخر ، ليصرفونا عن الاستماع والاصغاء اليها . ولكنها كانت محاولات فاشلة ، إذ ليس شىء أعلق بنفوس الصغار وأخلب للبّهم وألصق بخيالهم وأدعى لفضولهم من حديث يتسارّ به الكبار فيما بينهم ، ثم يُراد لهم ألا يلمُّوا منه بشىء . فكنا — لنرضيهم ونأمن مناكدتهم — ننأى ونصد عنهم لا عبين ظاهراً ، وننكفئ عليهم بالسمع نرهفه لنلتقط ما يتسارُّون به ويتهامسون . فلم يكن يفوتنا شىء من أحاديثهم عن الحرب ، وما يقدرونه لها من استطالة ، وما يترقبون من مفاجآت ، ومايخشون من عواقب ، وما يتوجهون به من عطف ، وتمنى الانتصار لهذه الدولة أو لتلك .

على أن أظهر ما كان يبدو من آثار الحرب هو ما كنا نلمحه من مظاهر الفاقة والحاجة الى الغـذاء ؛ وهو أثر ليس للتجمل والابتسام القسور عليه حيلة . فالحزن والغضب ، والحب والفرح ، والبغض والعطف ، والكره والحقد والخوف ، جميعها يستطيع المرء بالمران والممارسة أن يروض نفسه على إخفائها ، بل والظهور معها فى عكس مظاهرها الصحيحة . ولكن الجوع اذا أزمن لا يستطيع وجه أن يخفيه مهما رُزق صاحبه من قدرة على الاخفاء وحيلة فى التمويه .

أقول : كان هذا أكثر مظاهر الحرب بُدُوّاً عندنا وأشدها بروزا : وماذا ينتظر ممن كان فى سننا وفى مثل خبرتنا غير هذا ؟ وهل كان بوسعنا أن نستشرف من حوادث ذلك النضال غير هذا الأثر الذى لم يستجد علينا مع الحرب غيره ؟ فى الحق أننا لم نكن نعى من معانى تلك الحرب فى ذلك الحين سوى أنها شدة تقاسى فيها المعدة وتوابعها أشد مايقاسى ، وهى نظرة لم تكن من الضحولة وقرب الغور على قدر ما حسبنا لها فيما بعد ، حينما بدأنا نقرأ عن الحرب فى بطون الكتب وفى ثنايا الخطب ! وهذا فى الحق مما يُحسب للطفولة من بداهة مسدَّدة وإلهام صادق . ومن منا يشك بأن أقسى ماقاساه الناس عموماً فى الحرب هو الجوع ، حتى بين الجنود الذين كانت تشويهم نيران المدافع وتجزّئهم قذائفها !

* * *

أوينا الى فراشنا ليلتئذ على هدهدة قبضة من الأخبار المتناقضة عن الحرب مما ترشّح الى البلدة النائية . وكنا نتلقى هذه الأخبار

وقد خلفت « مدام كورى » وراءها ابنتها مدام « جوليو » زوجة العالم الفرنسى الاستاذ « جوليو » . وهى كوالديها شغوفة بالبحوث العلمية ، وهى تسلك نفس الدرب الذى شقه والداها من قبل . فقد أجرت مع زوجها فى سنة ١٩٣١ بعض تجارب فى اطلاق « الدقائق الالفية » على عنصر « البريليوم » مما كان من نتيجته الوصول الى معرفة أحد الاحجار البنائية فى الكون وهو « النترون » . فان لازمها التوفيق فسيكون للعلم « مسيو ومدام كورى » آخران ؟

مصطفى محمود حافظ
مدرس بمدرسة المعلمين بامبابه

فى كثير من الاستمتاع واللذة . وما هو إلا أن أغمضنا أجفاننا حتى نقلنا من عالم الواقع المنغص الى عالم الأحلام والرؤى اللذيذة : من عالم الحرمان الى عالم الرغائب المحققة والمتع الدانية . فكان لنا من شهى الحلوى التى حرمتنا الحرب ما نشتهى ، ومن طريف اللعب التى غابت مع الحرب ما نختار . على أنها كانت لعباً من نوع آخر غير الذى ألفنا . فهى لعب صورها مشتقة ومؤلفة من الأوصاف التى كانت توصف بها أدوات الحرب يومئذ : طيارات تئز فى الفضاء ، وسيارات تنهب الأرض وتتخطف الأميال ، ودبابات تجوز الوهاد وتتخطى العقبات ، وأمور أخرى شتى . وكنا فى يومنا يشن بعضنا الغارات على بعض ، وسلاحنا هذه الأدوات التى أعارها لنا الخيال ، فلم يكن يكلفنا اقتناؤها جهداً ولا نقداً ، إلا أنها متع لم تدم ، وأحلام رُوّعت ؛ فقد هببنا مذعورين بعد موهن من الليل على طرق يوالى دراكاً على باب أحد الجيران . وأصخت بملء جوارحى أتبين ضوضاء السيارات وقعقعة المدافع ، ورغاء الطيارات ، فيتصل ما بين يقظتنا والمنام : وهى الصورة التى تبادرت حالاً الى الذهن بعد ذلك الليل الحالم وبعد تلك الانكسارات والانتصارات التى عالجناها نياماً .

وأطللت فيمن أطلّ من خصاص الباب تتبين الأمر وتجتلى الواقع ، وكلٌّ فى ذهنه — على ما أقدّر — صورة تباين ما فى ذهن الآخر تبعاً لأول بوادر الخيال المروّع والبداهة المجفلة . ولم نلق صعوبة فى تبين الطارق ؛ فقد كانت ليلة قمراء فائضة النور كشفت لنا عن شخص فى بقية أثواب لا ينفكّ يقرع الباب بجُمع يده قرعاً فيه عنف وفيه شدة ، يصيح بين الفينة والفينة فى نبرات شديدة يطلب فيها فتح الباب ممن كان وقتها وراء الباب

أما صاحبنا الذى كان الطارق يقصده بالطرق ، وبهذه الصيغة الآمرة بفتح الباب ، فقد ذهب به الخيال مذهباً آخر . وهل يتجه فى مثل هذا الحال الى غير اللصوص خيالُ من امتلأت صناديقه بالذهب وفاضت بالأصفر الرنان ؟ إن صاحبنا كان على ثروة لا بأس بها فى مثل ذلك العهد . فقد كان صاحب مطحنتين ، وكان لا يتخلّى عن صاع القمح بأقل من خمسة مجيديات ، ليس من طمع أو جمود عاطفة كما كان يقول ، بل لأنه حلف حلفة لا يبيع الصاع بأقل من هذا المقدار ! ! فكانت تجيئه المرأة وبيدها الخمسة مجيديات تنقص بضعة قروش تروم بها دفع أجور الطحن فى مطحنته ، فيبادرها بهز الرأس مشيراً فى أسف الى يمينه التى أقسم والتى ستجرُّه إن هو حنث بها الى الجحيم !

أيقن صاحبنا إذن أن لصاً شديداً جاء يقتحم عليه الدار عنوة ، وإذن فليتحصن ما تيسر له أن يتحصن ، وليتخذ من العدّة كل ما يستطيع من عدة ، وليضع من الصناديق وراء الباب ما يضع ، وليأخذ بيده مسدسه محشواً ، وليوسّط بينه وبين الباب أمه العجوز يتترّس بها ، ففى جسمها الدسم الغنى بالشحم واللحم ، وفى قامتها العريضة المديدة وقاء له خير وقاء إذا همّ هذا الواغل بشىء من خلف الباب ، وتشجع صاحبنا المحاصر ونادى بصوت كالحشرجة : مَن الطارق ؟ ! من الطارق ؟ ! فجاءه الجواب زيادة فى الطرق ولجاجة فى النداء والطلب . وتكرر السؤال الذى جعله الرعب على وتيرة واحدة ، وتكرر الجواب الذى جعله الاصرار على وتيرة واحدة أيضاً .

* * *

وقال كبيرنا : ليس هو باللص الذى يخشى . وعهدنا باللصوص لا يقتحمون المنازل على السكان ، بل هم يتسللون اليها فى غفوة من الناس وغفلة من الحراس . وهو كذلك ليس بالسائل والعهد بالمتسولين يقرعون الأبواب قرعاً خفيفاً فى أبصار غضيضة ، ورؤوس منكسة ، وأصوات خفيضة لا تكاد تبين ، الاّ الأغرار منهم الذين لم يجربوا ولم يعرفوا من طباع البشر ما يعرف المتسولون المجربون .

ولم نشأ أن نطيل الحدس والتخمين ، فتوجه كبيرنا إلى الطارق وسأله فى جفاء ماذا يريد فى ذلك الهزيع من الليل ، ولم ذلك القرع العنيف والنداء الصاخب ؟ فأجاب فى نظر شارد وفى غير أناة :

لقد مضى على ثلاثة أيام لم أطعم طعاماً ، فأوشكت أن أهلك وقد طرقت فيمن طرقت حياً من أحياء الاعراب المخيمين فى ضاحية البلد الجنوبية على بعد غلوتين أو ثلاث ، فوصفوا لى هذه الدار من البلدة ، وقالوا انك واجد هناك قوتاً ومأوى ليلتك هذه ، وعساى لم أخطىء الاستهداء .

وهم كبيرنا ليدخله بعد الذى عرف من أمره دون أن يزيد فى

سؤاله ، فينال بعض الطعام ويبيت ليلته . غير انه حدث فى هذه اللحظة ماراعنا جميعاً : ذلك أن صاحبنا المحاصر ، بعد أن أنس إلى أصواتنا ولهجة الحديث الذى دار بيننا ، أيقن أن الأمر من الخطورة على غير ما توهم وجسم له الخيال الزائغ . ففتح الباب بعنف ظاهر ، والمسدس يلمع فى قبضة يده والعصا فى قبضة يده الأخرى ، ولم يتريث لنوضح له جلية الأمر ، بل أقبل على المسكين بهراوته الثقيلة وانهال يكيل له بلا حساب حتى كاد يقضى عليه بين أيدينا ، لولا أن لطف المولى وتداركه برحمته فسقط مما ناله بين أيدينا التى جعلنا منها شبه حاجز بين عنف الرجل المهاجم وضعف هذا الطارق . ولم يستطع صاحبنا معها أن يستعمل العصا فاندفع يكيل له بقبضة يده حيثما وجد سبيلاً إلى ذلك من بين أيدينا . وأدرك كبيرنا أى شىء يصير إليــه الرجل إذا لم يحل حيلولة تامة بينه وبين مهاجمه المحنق ، ولم تسعفه سنه من أول الأمر فى تخليص الرجل ، فلجأ أخيراً إلى أسلوب فيه شى من القسوة ، ولـكنه الأسلوب الذى لم يكن بالامكان ارتجال ما يفضله فى هذا الظرف الحرج . فقد أمسك بتلابيب الرجل وجره إلى حيث استطاع أن يوقيه من لـكمات مهاجمه الذى أراد أن يثبت لنا بعد ذلك الموقف من الجبن أنه على شىء كثير من البأس والاقدام

وبعد أن هدأ روع الرجل وتناول بعض الطعام أقبلنا نلومه مشفقين ، وسألناه ما شأنه ولِمَ لم يختر له غير ذلك الأسلوب الغريب للاستجداء واستدرار العطف . فأجاب عن أسئلتنا جميعاً بقوله :

إننى جندى من فلول الجيش التركى فى فلسطين ، طوح بى السير إلى هذه البلاد بعد أن نال مني الجوع والتعب أقصى ماينالانه من حى . فقد كنت لقلة خبرتى بالطرق أسير من البلد الواحد أبنى بلداً آخر فأنتهى غالبـاً حيث أبتدىء ، وأبتدىء حيث أنتهى . وكنت حيناً أصيب طعاماً أو شيئاً شبيهاً بالطعام وأحياناً أمضى ساغباً أياماً لا يخالط الماء فى جوفى شىء من الزاد ، وآخر عهدى بالطعام — كما أخبرتكم — كان منذ ثلاثة أيام . فقد استجديت واستجديت ، مصطنعاً كل أساليب الخشوع وأنواع الضراعة ، ولـكن فى غير طائل . وأخيراً وصلت ذلك الفريق من الأعراب فوصفوا لى هذه الدار ، فآليت لا أصبر زيادة عما صبرت فاما شبع يرد إلى الحياة ، أو موت أرتاح معه من ذلة السؤال وآلام الجوع . وعوّلت على أمر . قلت أبادر أصحاب الدار بالعنف والصياح : فان كانت فيهم بقية من رحمة وأثارة من انسانيــة لم يمنعهم صياحى إذا ما شاهدوا ما أنا فيــه ، من الرثاء لحالى والجود على بشىء . وان كانت الأخرى وكانوا كبقية الناس نالني منهم ما أرجو معه أن أضع حداً لهذه الحياة الثقلة . وحياة الجندى — كما قد تعلمون — لاتساوى فى هذه الأيام شيئاً ، ولا تعسر على أحد ، ولولا كم — جزيتم خيراً على كل حال — لـكانت هذه آخر ليالى من الشقاء .

ولحظت عند هذا الحد من حديث الرجل الدمع يجول فى عينيه بين متحير ومتحدر ، يهبط به الحزن لحظة ، وتـكفكفه الرجولة أخرى . وكأنه آنس منى عطفاً صادقا عليه وإشفاقاً على ماصار اليه ، فأقبل على يحدثني ويبثني شكواه . وأغلب اليقين أنه لم يكن يعتقد أنني مدرك الى أى الأغوار والاعماق النفسية تنحدر آلامه وأشجانه . إلا أن ذلك لم يكن بمانعه قط عن الحديث . والمرء اذا زخرت نفسه بالألم وأترعها الحزن تحدث الى كل شىء ، تحدث الى نفسه ، تحدث الى سواه ، تحدث الى الأطفال ، تحدث الى الحيوان ، تحدث الى الجماد ، تحدث الى لاشىء . فكأن المرء فى ذلك الأثناء يمتلىء فيفيض بالزائد على ماحوله .

كشف الجندى عن صدره وأرانى أثر جرحــين أو ثلاثة ، وكشف عن ساقه وأرانى مثل ذلك وشرع يقول : أترى ياولدى؟ هذا بعض نصيبنا من هذه الحرب . هذا بعض ماأصابني . ولـكنى كنت كلما اصبت أتغلب على آلامى وأتحامل على نفسى فألوذ بربوة أو اهبط حفرة تقيني زيادة الأذى الى أن ينصرف العدو أو يزول الخطر ، فأقوم اذا كنت قادراً ، أو أحمل الى حيث أعالج ، لأعود الى القتال أمضي عزيمة وأشد بأساً . ولـكن الزمن — يابنى — والجوع والخذلان ، قد ذهبت بالـكثير من قوانا وصبرنا ، فعدنا لايهمنا أكنا فى الطليعة أم فى المؤخرة . وأخيراً رأيتنى على غير ارادة مني أتخلف عن الجيش وأهيم على وجهى فى غير قصــد أو اتجاه ، الى أن انتهى بى المطاف الى هذا البلد ثم هذه الدار ، فنالني ما نالنى على يدى ذلك العلج الذى كاد يميتني بهراوته . . . أهــذا ياولدى جزاء هذه الجراح ؟ أهذه خاتمة الجندى الذى يدفع عـنكم

عدوان الأعداء بدمه وحياته ؟ ! إنني من غدى مسلم نفسى الى أقرب سلطة عسكرية تفعل بى ماتشاء . ذلك خير لى وأبقى .

والتفت اليه عند هذا الحد من حديثه وخاطبته متحمساً :

نعم ! ذلك أفضل ياعماه . لو كنت محالك ما فعلت غير هذا . انك هناك لا تضرب بالعصى على ما أعتقد ولا تجر على الأرض :

ونظر الى المسكين نظرة ذاهلة حزينة وقال :

نعم يا بنى ، سوف لايضربوننى بالعصى ، لأن العصى ليست جزاء من يتخلف عن واجبه فى الجندية ! إنما هى قطع من الرصاص صغيرة يدفنونها فى أحشائنا أو يولجونها فى رؤوسنا ، فنضحى وكأن لم نكن . ولكن يميناً غموساً لن يحول هذا دون ما أنا عازم عليه من غدى !

وخيل الى كأننى أدركت معنى هذا الكلام الغريب فراعنى من الرجل هذا العزم ، ونظرت اليه فى رعب ظاهر وذعر متوسل ، وبعد لحظة من الصمت خيل الى فيها أن الرجل يتذكر أموراً ويستعيد صوراً رفع عينيه وقال :

كلا ياولدى الصغير ! كلاّ ! سأجاهد اذاً فى سبيل الحياة ، سأحاول أن أعيش . إن لى صغيراً فى سنك . لقد نسيته حينما أقسمت ، ولكننى الآن أذكره . انه ينتظرنى الآن : ينتظر أن يطوقنى بيديه الصغيرتين . سأعيش ، سأعيش

وانحدر الدمع المعلق فى مقلتيه منذ حين ، وذهب يسير فى أخاديد وجهه المجعد . وكان بعضه يقع على الأرض وبعضه الآخر تتلقاه كفه وفيها قِدّة من القماش أخذها من بقية قميص على صدره

وعدت الى فراشى وليس أقر منى عيناً ، وليس أدمى منى قلباً كذلك .

اديب عباسى

فهرس المجلد الأول من السنة الثانية

طلب الينا كثير من قرائنا أن نجعل للمجلد الأول من السنة الثانية للرسالة فهرساً خاصاً يجلد معه . ونزولاً على ارادتهم سنتحين الفرصة القريبة لطبع هذا الفهرس وتوزيعه

المغفل المخدوع

« إذا أصيب الرجل بداء الغفلة فقد الثقة من نفسه ، وعاد لا ينظر بعينه ، ولا يسمع بأذنه ، ولا يفكر بعقله »

أولع ملك من الملوك بالجديد من الثياب ، فكان يتأنق فى لباسه التأنق كله ، وأصبح لا يرى اللذة إلا فى الاغراب فيه ، وكثرة الانفاق عليه ، وما كان يعبأ بعد ذلك بأمر أمته ، فترك الجند هملاً ، وهم حصن الأمة وسلسلتها الفقرية ، واحتقر علماء الدنيا والدين ، وهم مصابيح الكون يضيئون الحياة ، ويبصرون الناس بسبلها المعوجة وطرائقها العجيبة ؛ وكان لا يذهب الى التمثيل حباً فيه ، وإنما ليعرض على الناس زخرف ملبسه وجميل هندامه ، وكان لا يخرج للنزهة ترفيهاً لأعصابه واستمتاعاً بجمال الطبيعة ، وإنما ليدهش من يقابل ، ويثير فيه عاطفتين : العجب من تأنقه ، والاعجاب بذوقه .

مرت الأيام هادئة فى حاضرة الملك الواسعة ، وأخذ يأتيها الناس من كل فج عميق . وفى ذات يوم قدم الى الملك لصان متشردان ، ضربا فى فنون الاحتيال السهم ، وذهبا فى صنوف الخداع كل مذهب ، وتظاهرا أنهما أستاذان مبرزان فى النسج والحياكة ؛ فأقبل عليهما الملك بسمعه وبصره . ثم قالا له : « أيها الملك المعظم ، إنا نريد أن نقدم لك خدمة جليلة ، إذ أنت بها خليق ، وهى بك أنسب ، إنا نستطيع أن نعد لك ثوباً شفيفاً جميلاً لا يراه عليك إلا من كان مخلصاً لك ، معجباً بك ، أو كفؤاً فى عمله ، قديراً عليه » .

فتهلل الملك واستبشر وقال: « لله دركما ياصديقى ، ما أكرمكما وما أجمل صنيعكما ، إننى ولا شك أصبح بما تنسجان وتحوكان بصيراً بأحوال الخلق جميعاً ، فأعرف من كان لا يحسن عمله ، ولا يصلح للقيام بما وكل اليه ، وأعرف كذلك المخلص من المخادع المداهن ؛ فابدآ من الساعة بهذا العمل الخطير ، وأنا أعرف كيف أجزل لكما العطاء » .

ثم أمر الملك أن يعطيا مبلغاً كبيراً من المال ، وأخلى لهما قصر رحيب على مقربة من قصر الملك ، ثم انتشر الجند حوله

يحرسونهما من اعتداء المعتدين (من غير المخلصين وغير الأكفاء !)

جلس اللصان المحتالان في القصر الجديد ، ونصبا المناسج والأنوال ، وتظاهرا بالجد في العمل ، والمثابرة التي لا تعرف الملل ، وطلبا من الحرير أرقه وأنعمه ، ومن الخيوط الذهبية أدقها وأنقاها ، فجيء لهما بما أرادا ؛ ولما انفردا في المكان وضعا الحرير والخيوط وما أخذاه من المال في حقيبتيهما ، وجلسا الى مناسجهما القائمة يديرانها على لا شيء ، لا خيط عليها ولا قطعة حرير ، يديرانها بهمة غير محدودة الليل كله ، والملك في قصره ساهر يسمع أزيز المناسج والأنوال ، وهي لا تضعف ولا تخمد . وأخذ النعاس يغالب جلالته حتى غلبه وأخضعه لسلطانه ، ولم يبرح عنه حتى تنفس الصبح ، وجلا الليل جلاء تاماً ، فقام الملك مسرعاً الى نافذته ، تواقاً الى معرفة ما قد تم ، وأخذ يقلب وجوه الآراء فيمن يبعث ، فقر رأيه على رئيس وزرائه ، وما كان أخلص منه ولا أكفأ في نظر الملك .

كلف الوزير الأكبر بهذه المهمة الشاقة ، فانطلق في سبيله واثقاً من نفسه ، ودخل على الدجالين الكاذبين فوجدهما يتصببان عرقاً ، ويديران المناسج الفارغة بالقوة والعزم اللذين يميزان عمل المخلصين المصممين على النجاح ، فدهش الوزير الجليل وقال في نفسه : « ماذا أرى ؟ أيمكن أن أكون غير مخلص للملك أو غير جدير بمكانتي الاجتماعية العالية ؟ أيمكن أني لا أرى ولو قطعة صغيرة من الخيط أو الحرير على هذه المناسج القائمة الدائرة ؟ لله ما أشقاني ! » ثم صدر من اللصين سؤال قطع عليه تفكيره الصامت ، إذ طلبا منه أن يقترب قليلاً من المناسج ويخبرهما برأيه في اتساق الألوان ؛ ودقة التطريز وجمال الأشكال ، ثم أشارا في الوقت نفسه الى مناسجهما الفارغة .

اقترب الوزير الخطير ووضع منظاره على عينيه ليرى مالم تبصره عينه المجردة . نظر فلم ير شيئاً . ثم رجع البصر كرتين فعاد البصر اليه خاسئاً وهو حسير . اتهم الرجل نفسه وكفايته ودب الحزن في قلبه . وقال في نفسه : لا لا ! لايمكن أن يعرف الناس عني أنني غير مخلص أو غير كفء ، ولن أعترف أبداً أني ما رأيت النسيج الشفاف .

لم يكد السيد الرئيس يفرغ من خاطرته الشجية المضحكة حتى فاجأه أحد المحتالين بقوله : « سيدي ، يظهر أنك لا تبصر محاسن ما قد صنعنا . » فأجابه الوزير : « لا أبصره ! ! ومن ذا الذي يستطيع الابصار اذن ؟ ما أبدع ما أرى وما أدقه ، بنفسي تلك الألوان المتسقة . وهذه التصاوير الرائعة . و . . و . . . نعم سأخبر الملك سريعاً بهذا البدع وهذا التفنن » فشكره اللصان شكراً جزيلاً على حكمته وكفايته . وأخذا يشرحان له الأشكال المختلفة الموهومة . ويذكران أسماء الألوان . ويبينان مواضع الحسن في ذلك القماش الخيالي . والوزير يصغي اليهما ويهز رأسه لبعض ما يسمع حتى يسرده على الملك عند عودته حرفا بحرف

رجع الوزير والهم حليفه الى الملك ، وأخذ يصف ذلك الجمال الذي سمعه بأذنه . وعجز عن رؤيته بعينه . والملك يترنح عجباً وسروراً . وفي اليوم التالي بعث الملك ضابطاً من ضباطه الذين سمعوا وصف الوزير وإعجابه بما شهد . فذهب الرسول ولم ير من المناسج إلا خشباً قائماً لا شيء فيه . ولكنه اتهم عينيه واتهم كفايته وأخذ يفكر تفكيراً هو الحريق الداخلي ويقول لنفسه : « لاشك أني غير كفء لمكانتي ذات الأجر الكبير . أف ما أتعسني ! كيف أعجز عن إبصار مارآه السيد الرئيس وافتتن به ؟ لايجوز أن يعلم أحد عني ما أعلمه الآن من نفسي . » ثم ارتفع صوته فجأة بالاعجاب والمديح ، وعاد إلى الملك يبالغ في الثناء . فازداد الوزير (وكان حاضراً) اتهاماً لنفسه وكفاءته . وسر من كذبه الصالح . ثم عزم الملك على زيارة تلك المناسج العجيبة . فقام مع حاشيته ورئيس الوزراء والضابط الممتاز وذهبوا إلى اللصين جميعاً

دخلوا حجرة اللصين فصاح الوزير الأكبر صيحة العجب والاعجاب : « ما أجمل ذلك الزخرف . وما أدق هذه الصنعة ! وما أبدع تلك الألوان المتداخلة . وتلك الأشكال المتماثلة . » ثم صاح الضابط : « يالله ! ما كنت أحسب قبل اليوم أن في طاقة الانسان أن يعمل كل هذا البدع : ثوب شفيف مطرز . وبالأشكال الجميلة مزخرف . وهو مع ذلك لاتراه إلا عيون المخلصين والأكفاء ، ولا تلمسه الأيدي ولا تدركه الظنون . »

فوجم الملك وقال في نفسه : « ما هذا ؟ ألا أرى شيئاً ؟ إنها لمصيبة كبرى ؟ هل يمكن أن أكون معتوهاً أو غير خليق بالملك ؟ لا . لا بد أن أسدل على الأمر ستار الخفاء . » ثم صاح

« حقاً ما أجمل ذلك القماش ! إنى راض عنه الرضى كله » ثم ابتسم وحدق فى المناسج الفارغة . ولكن هيهات لنفسه الضعيفة أن تنكر وجود شيء أقره رجلان من كبار رجاله ! ! وانطلق رجال الحاشية يحدقون كذلك ويصيحون : بديع ! مدهش ! فخم ! عجيب ! رائع ! تلك كانت الصفات التى أخذت ترن فى أنحاء المكان الواسع . ثم عطف الملك على الحائكين وأجزل لهما العطاء ورفعهما إلى الدرجات العالية ، وقرر الملك أن يلبس تلك الحلة الرائعة ويسير فى موكب فخم فى أنحاء المدينة يعرضها على الأنظار . .

جاء يوم الاحتفال — ذلك اليوم المشهود — فخرج الناس من منازلهم ، وساروا زرافات فى الطرق ، حتى فاضت بهم السبل ، وكأن الأرض صفحة كتاب ، سطورها الشيوخ والشباب . أما الملك فقد جرده اللصان من ملابسه إلا قميصه وسرواله ، ثم أوقفاه أمام المرآة ، وأخذا يروحان ويجيئان ، ويرفعان أيديهما ويضعانها ، ويديران الملك أمام المرآة ليرى الحلة الجديدة ، وأفراد الحاشية وقوف بين متعجب ومسرور ، ثم صاح اللصان أن قد تم كل شيء فتقدم الخدم الى رفع الذيل الموهوم لتلك الحلة الخيالية ، وسار الملك فى طليعة السائرين ، والوزراء والأعيان حوله ووراءه ، والنساء مطلات من النافذ والشرفات ، والناس مبهومون بالنظرات . وما وقعت عيونهم عليه حتى علا الصياح يشق جوف الفضاء : « ما أجمل الثوب ، وما أبدع الذيل » ! ! . . .

وهكذا ظل كل انسان يخدع نفسه ويكذب عينيه ، ظناً منه أنه وحده قد عجز عن رؤية الثوب ، وأن الباقين يرونه كما يرى بعضهم بعضاً . واستمر الحال كذلك برهة والناس جميعاً خادعون ومخدوعون ، ثم صاح طفل ساذج : « ليس على الملك ثوب جديد ! الملك عريان ! » فبهت الجميع . . . ثم صاح شيخ كهل :

« اسمعوا صوت الحق ، اسمعوا صوت الطبيعة التى لا تعرف الملق والنفاق » . فاغتم الملك غماً شديداً إذ علم أن ما قاله الطفل حق صراح ، يبصره هو ويشعر به ، ثم عاد أدراجه بين سخر الساخرين ، واستهزاء الضاحكين .

م . ك

سيوة

تقع واحة سيوة فى صحراء مصر الغربية على الحدود ما بين مصر وطرابلس على مسافة مائتى ميل جنوبى السلوم وأربعمائة ميل غربى وادى النيل .

ويمكن القول أنها الواحة الشمالية من سلسلة واحات تتبع إحداها الأخرى من الجنوب إلى الشمال فى صحراء « ليبيا » وكان الأقدمون يسمون هذه الواحات « بالأراضى المقدسة » لأنهم كانوا يعتقدون أن الآلهة منحت هذه البقاع ماء وسط تلك الصحراوات القاحلة ، ولأن هذه الواحات قد حمتها الطبيعة بأن أحاطت كل واحة منها بسلسلة من جبال كلسية تمنع عنها الرمال الدقيقة التى تحملها معها الرياح ، إذ لولا هذه الجبال لغطتها كثبان الرمال وجعلتها فى عالم النسيان ، كذلك عيون الماء المتفجرة فى هذه الواحات سببت الحياة والرخاء وسط ذلك المحيط القاحل غرب وادى النيل .

تتكون سيوة من عدة واحات صغيرة متجاورة تقع فى منخفض من الأرض يبلغ طوله حوالى ثلاثين ميلا وعرضه ستة أميال تقريبا ، وينخفض عن سطح البحر حوالى عشرين متراً تكنفها صحراء جرداء محرقة لا تسقط فيها الأمطار

ولقد زارها الاسكندر الأكبر حينما غزا مصر وتبرك بزيارة معبد « جوبيتر آمون » إرضاء للكهنة المصريين ورغبة منه فى إظهار احترامه لدينهم

يبلغ عدد سكانها ثلاثة آلاف نسمة ، وهم سلالة أقوام قديمة من البرابرة ، ولا يشبهون أعراب الصحراء فى شيء . ولهم لغة خاصة بلهجة ولكنة غريبتين ، ولعلها لغة أجدادهم البرابرة القدماء ، والغريب فى أمرهم أنهم يتكلمون بتلك اللغة ، ولكنهم لا يتكاتبون بها ، بل إنهم يتكاتبون باللغة العربية ، ولا شك فى أن بقاء هذه اللغة البربرية راجع إلى بعد الواحة عن العمران ، وصعوبة المواصلات بينها وبين الأجزاء الأخرى من القطر فقل اختلاط السكان بالمصريين والأعراب ، بل إن أهالى سيوة لهم عادات خاصة ، وطباع تخالف فى جوهرها طباع العرب و سكان وادى النيل

ليس لهذه الواحة تاريخ معروف ، بل إن ماضيها مظلم ، وليس من

سبيل لالقاء أشعة من النور لمعرفته إلا إذا قامت بعثات علمية بالحفر فى جبالها وآثارها والتنقيب فى معابدها وخرائبها حتى يمكن أن يرفع ذلك الستار الكثيف عن تلك المدنية البائدة الغريبة

والطريق الأكثر استعمالا للوصول إلى سيوة هو من مرسى مطروح والسلوم ، ويمكن للسيارات الصغيرة الخفيفة أن تقطع مابين مرسى ومطروح وسيوة فى ثمانى ساعات . أما السيارات الثقيلة المعدة للتحميل فتقطع المسافة فى يومين ، وتقطعها الجمال فى سبعة أيام ، ويقطع كثير من أعراب الصحراء المسافة من شاطىء البحر الأبيض إلى سيوة مشيا على الأقدام وهى مسافة لايستهان بها إذا أضيف اليها ندرة الماء فى الطريق .

وكل ما يعيش عليه الأعرابى فى الطريق ، قليل من التمر ولبن الناقة وقطرات من الماء ، وبهذه المناسبة أقول إن السيارات لم تبدأ بالسير بين مرسى مطروح وسيوة إلا منذ سنة ١٩٣٦ أما قبل ذلك فالمواصلات بين البلدين كانت بالجمال ، غير أنه حدث أن زار الخديو السابق عباس باشا سيوة سنة ١٩٠٥ مع بعض الألمان الذين كانوا ينقبون عن الآثار فى مدينة «سانت منياس» القديمة التى تقع فى الجنوب الغربى من الاسكندرية وكان بصحبته الهر إيوارت فولز . Ewart Falls وقد قطع المسافة لسيوة على عربة مكشوفة (فيتون) تجرها جياد تستبدل بغيرها كلما أصابها الكلال والتعب ، وهذه هى المرة الأولى التى سارت فيها عربات ركوب فى الصحراء فى تاريخ سيوة الحديث ، وتألفت حملة الخديو السابق فى هذه الزيارة من أربعة علماء من الألمان وعشرين جنديا وإثنين وستين حصانا و٢٨٨ جملا لحمل الأمتعة . هذا عدا خدم الخديو الخصوصيين .

وتهتم مصلحة الحدود الآن باصلاح الطريق ما بين مرسى مطروح وسيوة ، فهى تزيل الصخور من الطريق وتضع مخلوطاً من خرسانة الأسمنت فى المواضع التى يغطيها مطر الشتاء ، ثم إنها أصلحت بعض المستودعات القديمة الرومانية التى تجمع فيها الأمطار وسقفتها بأسقف من خرسانة الأسمنت وعملت فيها فتحات حتى يتمكن المارة من أن يحصلوا على الماء بالقاء دلو مربوط فى حبل كى يأخذوا مايشاءون من الماء ، وحتى لا يضيع أى قدر من ماء الأمطار ، وازدادت تلك العناية عقب زيارة حضرة صاحب الجلالة الملك الأخيرة سنة ١٩٢٨ إذ أن مصلحة الحدود تعمل على إيجاد أكبر عدد من مستودعات ماء المطر فى طريق الصحراء بين مرسى مطروح وسيوة لدرجة أن العربى الذى يقطع المسافة سائراً على قدميه يمكنه أن يجد فى طريقه كل يوم مستودعاً فيأخذ منه ما يحتاجه من ماء يكفيه طول اليوم ، ومن أكبر هذه المستودعات أو الآبار هو بئر جلالة الملك فؤاد الأول عند البويب وهى منتصف المسافة تقريباً بين مرسى مطروح وسيوة ، وتوجد آبار أخرى فى الطريق أذكر منها بئر الكنائس والجحفا وغيرها .

يقطع المسافر من مرسى مطروح الصحراء الغربية فى رقعة من الأرض متشابهة الأشكال والمنظر لا تغيير فيها ، فهى رمال صفراء تغطيها قطع صغيرة من الأحجار المتناثرة هنا وهناك ، ويمر فى طريقه ببعض التلول الصخرية القاتمة اللون ، ولا يرى إلا سراب الصحراء على امتداد البصر ، ولقد رسمت السيارات دروباً واضحة فى الصحراء بحيث أصبح السائقون على إلمام بها بحيث لا يضلون الطريق كأنما هم يسيرون فى شوارع البلاد الآهلة بالسكان ، وقبل الوصول الى سيوة بما يقرب من عشرين كيلو متراً تبدأ العربات بالانحدار فى طرق منعرجة وسط الصخور التى تحيط الواحة ، ولا تزال هذه الطرق تنحدر فى ميلها تدريجياً حتى تتمكن السيارات فى نهايتها من الوصول الى الواحة نفسها ، وذلك الانحدار طبيعى لأن هضبة الصحراء ترتفع عن سطح البحر ، بينما الواحة نفسها منخفضة عن سطح البحر حوالى عشرين متراً ، وما أن ينتهى ذلك الانحدار حتى ترى أشجار النخيل وقد مالت كل منها على الأخرى وكأنما هى عرائس وضعت على رؤوسها أكاليل من أوراق الربيع الخضراء ، وتراها وهى فى وسط الواحة الهادئة الساكنة كأنما تسر كل منها للأخرى أسرار الكون وأسرار وجود الحياة وسط تلك الصخور الصامتة الخرساء . ولا شك فى أن القادم على سيوة حينما يقع بصره على أشجار الزيتون والنخيل يشعر بالفرق الشاسع بين تلك الصحراء المملة برمالها ودروبها ، وبين تلك الواحة باخضرارها ووجود الحياة البالغة فيها ، ثم يستمر السير وسط حقول الواحة وقد أحيط كل حقل بسياج من جريد النخل الذى لفحته حرارة الشمس فتحول لونه من أخضر زاه الى أصفر ذهبى ، وبعد مسير بضع دقائق تصل وسط البلدة عند مركز سيوة .

« يتبع »

ثابت

الكتب

رســـائل سائر

من بلاد العرب الى بلاد اليونان

بقلم صاحب الفضيلة الشيخ محمد سليمان

من الأمور اليسيرة العسيرة ، السهلة الممتنعة ، التى تستعصى اجادتها إلا على ذوى الأفهام النادرة ، والأقلام القادرة ، وإن خدعت ظواهرها ، وخيل لأوساط الكتاب أنها هنة هينة ، تستطيع أرباع الاقلام وأنصافها أن تجول فيها وتبرز ، هى تصوير الشعوب تصويراً صادقا ناطقاً قوياً رائعاً . . . يروى عن سائح فرنسى زار انجلترا ، أنه لم يكد يقيم بها أسبوعا حتى حمل القلم وهم بالكتابة عنها ، فلم يقطر قلمه إلا كلمات متقطعة وأسطراً ركيكة فلم يشأ أن يرد ذلك الى قصوره وعجزه ، وزعم لنفسه أنها سبعة الايام لا تجمع فى الذهن محصولاً من الصور يكفى لاجادة التصوير ، وعول على الاقامة شهراً كاملاً ، فانقضى الشهر واهتز القلم ، وانغمس فى الدواة مراراً وجف مراراً ، دون أن يهبط عليه الوحى الذى يرجو ، ولكنه ليس عاجزاً ولا مقصراً ، انما هو الشهر لاينفع ولايجدى كاتباً يريد أن يجيد ، فصبر حتى دار الفلك دورة كاملة ، وانسلخ العام بشهوره الاثنى عشر ، والذهن على ركوده والقلم على جموده ، فأيقن بعجزه عن الوصف وارتحل

فليست الكتابة عن الأقطار والشعوب هينة لينة كما يبدو ، إنما هى مرتبة عالية ، تحتاج الى قلب كبير حساس ، يعى ما يرى من الصور وعياً تاماً ويحسها احساسا قوياً ، حتى لكأنه نشأ بينها ودرج فى أحضانها ، والى عقل راجح لايميل به الهوى ، فيزن القول وزناً دقيقاً عادلاً ، والى قلم قدير ينطق بما يحسه القلب ويحكم به العقل . وقد اجتمعت هذه الادوات الثلاث لدى الاستاذ الجليل الشيخ محمد سليمان ، الذى طوف فى أرجاء فلسطين وسوريا وزار بلاد اليونان ، فلم يعوزه ذلك القلب اللاقط الحساس ، ولا غرابة فهو أبو التلاميذ جميعاً ، الذى وسعت رحمة قلبه ألوف الأبناء ، ولم ينقصه العقل الراجح المتزن العادل ، فقد عرفته منصات القضاء أعواماً وأعواماً ، فاذا ما أحس قلبه واذا ماحكم عقله ، ألفيا قلماً بليغاً ينطقانه فى بيان ساحر خلاب .

طوف الأستاذ فى تلك الأنحاء ، فأحس كثيراً وعلم كثيراً ، فأملى على القلم إحساسه وعلمه ، فصدع القلم ودبج فصولاً لست أعرف خيراً منها ، أستغفر الله بل ما يدنو منها فيما كتبه الرحالة المتجولون حديثاً ، وأخذ ينشر تلك الفصول تباعاً فى صحيفة سيارة ، ثم نظمها اليوم فى كتاب ، حتى يطالعه الأخلاف كما قرأه المعاصرون ، فكان هذا الكتاب القيم : رسائل سائر

قرأت الكتاب فراعتني منه جوانب ثلاثة : التصوير الدقيق ، والملاحظة الصحيحة ، واستخلاص العبرة ، ولو أردت أن أسوق اليك الأمثلة لنقلت اليك الكتاب الذى أدعوك لقراءته من السطر الأول إلى السطر الأخير

على أن فى الكتاب هنات يسيرة ، كنا نرجو أن يبرأ منها كالتطويل القليل الفائدة فى بعض المواطن ، وقلة عدد الصور ، وهذا القليل لم ينل حقه من الاجادة تصويراً وطبعاً ، وكالأطناب فى خالد بن الوليد ، ومن رأينا أن مايمكن تحصيله وأنت هادىء ساكن فى مكتبك ، ليس مما يحسن ذكره فى كتب الرحلة ، وبوقوع بعض الأخطاء اللغوية ، أو التى نحسب أنها كذلك ، ففى صفحة ٧ يقول « ظاهرة حقة » ونظن أن الصفة هنا لاتؤنث كقولك رجل عدل وامرأة عدل . وفى صفحة ٣٥ ذكر الريح مذكراً وأظنها أو يحسن على الأقل — أن تكون مؤنثة . وفى صفحة ٣٨ ذكر « باقة زهر » والباقة لا تكون إلا للبقل ، أما حزمة الزهر فيقال لها طاقة الزهر .

وانما نذكر هذه المآخذ لضرورة ذكرها فى مجال عرض الكتاب ، على انها لاتشوه من جمال الكتاب فى شىء ما

زكى نجيب محمود